

السّيّد محمّد باقر الصّدر

بين فلسفة الفكر وأصالة المعرفة التاريخيّة

الأستاذ الدكتور السيّد حسن عيسى الحكيم

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

بسم الله الرحمن الرحيم



السّيّد محمّد باقر الصّدر

بين فلسفة الفكر
وأصالة المعرفة التاريخيّة

الأستاذ الدكتور السيّد حسن عيسى الحكيم

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

تصــــديــر

رغم مرور السنوات الطويلة على استشهاد الشهيد السيّد محمد باقر الصدر رضوان الله عليه، ما زال حيّاً في فكره ورؤاه التي شكّلت مدرسةً إسلاميّةً رائدةً لكلِّ الدُّعاة والمبلّغين وطلاب العلم والعلماء والمثقّفين...

وما زالت مئات الدراسات والأبحاث والكتب تصدر تباعاً لإلقاء الضوء على رؤى السيّد الشهيد، ومنها هذه الدراسة التي وضعها الدكتور الأستاذ السيّد حسن عيسى الحكيم رئيس جامعة الكوفة سابقاً، وهو عَلَمٌ من أعلام النجف الأشرف، ومختصٌّ بعلوم التاريخ ويعمل حالياً على إعداد موسوعة تفصيلية عن النجف الأشرف قد تصل إلى مائة جزءٍ، وله أكثر من مائتي بحثٍ ودراسة في جميع مناحي التراث والتاريخ...

وهو في هذا الكتاب يستعرض معالم الفكر الإمامي للسيّد الشهيد مع التأكيد على الوحدة الإسلامية التي كانت تمثّل أساس مواجهة نظام الطاغية في بغداد، ويُعرِّج على

أصالة المعرفة التاريخية عند السيّد الشهيد رضوان الله عليه ...

في هذا الكتاب نقرأ احتضان السيّد لجماهير العلماء والمثقفين والمجاهدين، ومواجهته الإيمانية الصلبة لظلم السلطة الغاشمة، مع مرور سريع على جهاد السيّدة آمنة الصدر (بنت الهدى) وما قدّمته من تضحيات... وأخيراً يسلّط الدكتور الحكيم الضوءَ على علاقته الخاصة بسيّدنا الصدر رضوان الله عليه وكيف تأثّر به على المستوى الشخصي والمستوى العلمي...

ونحن في المركز الإسلامي الثقافي يسرّنا أن ننشر هذا الكتاب لتعُمّ فائدته وتستفيد منه أجيال المسلمين، وليكون واحداً من الكتب التي عبّرت عن وفائها للسيّد الشهيد محمد باقر الصدر رضوان الله عليه ... مع دعائنا للدكتور الأستاذ الحكيم بالتوفيق والنجاح والتسديد...

والله الموفّق

مدير المركز الإسلاميّ الثقافيّ

شفيق محمّد الموسوي

جمادى الأولى ١٤٣٧ هـ/ شباط ٢٠١٦م

***

المقدّمـة

***

هذه سطورٌ قد لا تتناسب مع مقام الشهيد السعيد السيّد محمّد باقر الصدر، ولكن الواجب المُلقى على عاتقي يدعوني إلى أن أُسهم بهذه الدراسة، حلقةً أخرى في سلسلة الدراسات التي تناولت هذه الشخصيّة العظيمة، وأنّ الأحداث التي ربطت بيني وبين الشهيد السعيد، جعلتني أكتب هذه السطور، ولعلّ بعض الصِّلات كانت تربُط بين الإمام الحسين عليه السلام والشهيد الصدر في موقفهما من الطغاة والسلطة الجائرة، في مقدمتها وجود الشبح المخيف الذي يقف أمام السلطة ويهددها بالزّوال، سواء أُعلنت الثورة أم لم تُعلن، ولكن لابدّ من أن يصغيَ صاحبها بأيّ وسيلة، وإذا كان الإصرار على هذا الموقف فلا بدّ للثأر من الشهادة بكرامة، وقد أكّد أئمة أهل البيت عليهم السلام هذا الجانب بالقول: «هيهات منّا الذلّة»، وقد تلمّسنا هذا الأمر في محاولات السلطة الجائرة مع السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر، وتقديم الإغراءات له، ولكنّه وضع في حساباته

الشهادة سواء استجاب للسلطة أم عارضها وكانت المدّة الواقعة بين ١٩٧٠ و١٩٨٠م مسرحاً للأحداث، فلم تتورّع السلطة، إذ ساقت الألوف من الناس إلى مذبح الشهادة دون أن يكون القانون رادعاً أو ضابطاً لهذه الإجراءات ولا شكّ في أنّ السيّد الشهيد سيكون أمام الأمر الواقع، فاختار الشهادة لأنها النتيجة المفردة.

وإننا إذ نكتب عن السيّد الشهيد الصدر، معتمدين على خزين الذاكرة من جانب آخر، فإنّ ثمّة أموراً لم يكشف النقاب عنها، ولا أدري هل احتفظت أسرة الشهيد الصدر ومريدوه وطلّابه المقرّبون بهذه الخفايا الدفينة، أم أنّ السلطة قد أخفت أو أتلفت أوراق السيّد الشهيد ومذكّراته، وربّما، فإنّ مثل هذه الوثائق يمكن أن تلقي الضّوء على وثائق احتفظت بها الأجهزة الأمنيّة، وإذا كُشف عن هذا الغاطس الغائب من سيرة الشهيد الصدر، فإنّه سوف يضيء الطريق للباحثين في إعطاء الصورة الحقيقية لأهداف السيّد الشهيد، ومرامي السلطة الحاكمة، وقد آن الأوان بعد سقوط النظام الجائر عام ٢٠٠٣م، من دون أن نسمع بالجديد الذي نطمح إليه سوى الدراسات المقدّمة عن فكر السيّد وجهاده وشهادته، وأنّ الستار الذي ضُرب على أخته الشهيدة السعيدة آمنة الصدر المعروفة ببنت الهدى مازال كثيفاً، والكشف عنه قد يزيل جانباً من هذا الغموض، ذلك

بأنّ الثورة الصدريّة كانت ترتكز على الجانب الإعلاميّ الذي قامت به السيّدة الشهيدة بنت الهدى، ويبقى الزمن يلاحق المؤلّفين والباحثين للوصول إلى الحقائق التاريخيّة إذا ما وجدوا وثائق جديدة، وعند ذلك يمكن أن تستوفي سيرة السيّد الشهيد السعيد محمّد باقر الصدر، ويُفسح المجال للباحثين المتخصّصين في حقول الفقه والأصول والفلسفة والتاريخ، وفي مقدّمتهم طلبة الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه) للحديث في جزئيّات المعرفة الصدريّة، والكشف عن عمقها المعرفي وأصالتها الفكريّة.

ونسأل الله العليّ القدير أن يأخذ بيد العاملين إلى شاطئ الحقيقة والموضوعيّة، إنّه نِعم المولى ونِعم النصير.

النجف الأشرف

الدكتور حسن الحكيم

١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م

***

التمهيد

***

عاصرتُ السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر رضوان الله عليه، منذ ستّينيّات القرن العشرين، وأنا أقرأُ مجلّة الأضواء النجفيّة العقائديّة، وأشاهد جماعة العلماء في نشاطها السياسيّ منذ قيام ثورة الرابع عشر من تمّوز ١٩٥٨م، وقد أخذ نجم الشهيد يلمع في سماء الحوزة العلميّة في النجف الأشرف، ومن ثم بدأت مؤلّفاته تُسيطر على الساحة العلميّة والفكريّة وفي مقدّمتها (اقتصادنا) و(فلسفتنا)، وقد اتجهت الأنظار إليه بالتقليد والمرجعيّة العليا بعد وفاة الإمام السيّد محسن الحكيم عام ١٩٧٠م. وكانت السلطة الحاكمة بين موقف التوفيق من نشاطه العلميّ والسياسيّ، وبين المترقّب للوضع العام، وبخاصة بعد اقتراف السلطة لجريمتها النّكراء عام ١٩٧٥م، بإعدام الطليعة الأولى من قياديي حزب الدعوة الإسلاميّة، وما أعقب ذلك من أحداث مؤلمة تجاه الزائرين للإمام الحسين عليه السلام في زيارة الأربعين، وما إن حلّ عام ١٩٧٩م، حتّى جُنّ جنون السلطة الحاكمة بعد

انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، ووقوف السيّد الصدر إلى جانبها ومؤيّداً لمشاريعها، فأقدمت على مضايقته في داره، وضُرب طوق من الحصار عليه، واستجوابه مرّات عديدة من قبل السلطات الأمنيّة، ومن ثَمّ اعتقاله وإعدام أخته الشهيدة آمنة الصدر (بنت الهدى)، ولم أنسَ حديث أستاذي المرحوم الدكتور فاضل حسين، معي يوم كنت طالباً في كلّية الآداب في جامعة بغداد في مرحلة الدكتوراه عن حقيقة إعدام السيّد الصدر، فأجبته بتفاصيل الموقف فقال: «إنها حماقة سوف يُحاسب عليها التاريخ»، وكان قد سألني بين الحين والآخر عن الوضع في مدينة النجف الأشرف، وهو يتوقّع بروز حوادث على وفق رؤيته بوصفه متخصصاً في التاريخ الحديث والمعاصر، وشهدت أحداث الحرب الظالمة على إيران بين ١٩٨٠ و١٩٨٨م والانتفاضة الشعبانيّة عام ١٩٩١م، وأحداث مدينة النجف الأشرف الدامية، وما غيّبته المقابر الجماعيّة من شباب ورجال علم وفكر وأدب، وجامعيين، وأصحاب شهادات عليا، حتّى بزوغ فجر الحريّة في التاسع من نيسان ٢٠٠٣م، وبقي السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر حيّاً خالداً، وطَمَر الطغاة في مزبلة التاريخ، ﴿**وسيعلَمُ الذين ظلموا أيّ مُنقلب يَنقلبون والعاقبةُ للمتّقين**﴾[الشورى: ٢٢٧].

وأنا الآن أكتب هذه السطور عن الشهيد السعيد السيّد

الصدر، لعلّها تلقي ضوءاً على جانب من حياته العلميّة والفكريّة والسياسيّة، تضاف إلى الدراسات والبحوث التي تَناولت جوانب معيّنة، وسيبقى الخلود يلازم الشهيد الصدر ما دامت الأقلام تدوّن حتّى تُصبح الموسوعة الصدريّة خالدة مع التاريخ.

الدكتور حسن الحكيم

❊❊❊

الفصل الأول

السيرة الذاتيّة للسيّد الشهيد الصدر

ولد الشهيد السيّد محمّد باقر بن السيّد حيدر بن السيّد اسماعيل الصدر في مدينة الكاظميّة عام ١٩٣١م/ ١٣٥٠هـ ونشأ فيها، وتتلمذ على يد أعلام الأسرتَين آل الصدر وآل ياسين، اللتين انحدر منهما من جهتَي أبيه وأمّه، وقد برزت عليه علامات النبوغ والوعي والعبقريّة منذ الصغر، وقد أراد له أخواله أن يتعلّم في المدارس الرسميّة، لكي يُصبح طبيباً أو مهندساً، لكنّ والدته أرادت له أن يكون فقيهاً مجتهداً. ومنذ سنّ العاشرة من عمره اختار الدراسة العلميّة الحوزويّة، وبدأها في مدينة الكاظميّة على يد أخيه العلاّمة السيّد إسماعيل الصدر، فتتلمذ عليه في علم الأصول، ولمّا أتمّه هاجر إلى مدينة النجف الأشرف لاستكمال تحصيله العلميّ في الحوزة النجفيّة، فتتلمذ على يد علماء عصره وهم[1]:

(١) العبّاسي: البعد الدوليّ لاغتيال الإمام باقر الصدر ص١٢ـ١٤،
النعماني: الشهيد الصدر سنوات المحنة وأيّام الحصار ص٤٦،
الجزائري: رحلة الصبر ص١٤،
الحائري: الشهيد الصدر ص٥٢،
الحسيني: محمّد باقر الصدر ص٥٣.

١ ـ السيّد أبو القاسم الموسويّ الخوئي
٢ ـ الشيخ محمّد رضا آل ياسين
٣ ـ الشيخ مرتضى آل ياسين
٤ ـ الشيخ ملا صدرا البادكوبي
٥ ـ السيّد باقر الشخص
٦ ـ الشيخ عبّاس الرميثي
٧ ـ الشيخ محمّد تقيّ الجواهري
٨ ـ السيّد محمّد الروحاني

وأصبح السيّد محمّد باقر الصدر عالماً فقيهاً، وأصوليّاً فيلسوفاً، وقد تداخلت في نشأته العلميّة ثلاثة عوامل جعلته يبلغ القمّة في المجالات المعرفيّة، وهي:

١ـ التربية الأسريّة.
٢ـ البيئة والمحيط.
٣ ـ الاستعداد الذاتي.

ويبدو أنّ لعلم الأصول أثراً في بروز شخصيّته في الفكر الإسلاميّ، وساعده على تكوين نظريّات علميّة جديدة. وقد لازم التحصيل العلميّ والفكريّ منذ صباه إذ كانت بدايته على يد العلاّمة أخيه السيّد إسماعيل الصدر، وأعلام أسرته من آل ياسين، وفي مقدّمتهم الإمام الشيخ محمّد رضا آل ياسين، والعلاّمة الكبير الشيخ مرتضى آل

ياسين، وقد ساعدته ثقافته الفقهيّة والأصوليّة في الوصول إلى الطبقة المتقدّمة في الحوزة العلميّة، وقد طلب منه أستاذه العلاّمة الشيخ عبّاس الرميثي، مساعدته في تأليف كتابه «التعليقات العلميّة»، وبدأ نجم السيّد الصدر يزداد بريقاً ولمعاناً في حوزة الإمام السيّد أبي القاسم الخوئي، إذ وجد فيه القدرة على استنباط الأحكام، لذا مَنَحه إجازة الاجتهاد، وقد أهّلته هذه الإجازة إلى وضع منهج شامل لبناء الفكر الإسلاميّ، في الوقت الذي أَخذت الأفكار الوافرة تغزو المجتمع الإسلاميّ، وتشنّ عليه حرباً فكريّة وسياسيّة، فتصدّى سماحته لهذه الحملة الضارية بكتابه «اقتصادنا»، الذي دحض فيه الفلسفات الماركسيّة والرأسماليّة بأسلوب علميّ محايد، قارن فيه بين الفكر الاقتصاديّ الإسلاميّ، والأفكار الإسلاميّة الأخرى، كما وقف وقفةً عقائديّة حازمة في كتابه «فلسفتنا»، وقد يتصوّر البعض أنَّ كتابَي «فلسفتنا» و«اقتصادنا» هما نتاج المدرسة النجفيّة القائمة على دراسة الأصول والفقه أكثر من غيرهما من المعارف والعلوم، ولكن فكر السيّد الصدر فيهما كان أبعد من حدود هذه المدرسة، فقد امتدّت ثقافته المعرفيّة إلى النظريّات العالميّة، والفلسفات الفكريّة الحديثة، ومنها «فلسفة التاريخ»، وعلم الرجال والمنطق وغيرهما من العلوم، فكان كتاب «فدك في التاريخ» نتاج نظريّة جديدة

في المعرفة التاريخيّة، وإنّ مناقشاته المعرفيّة الدقيقة تلتقي مع التفسير العلميّ للتاريخ، فإنّه قد تتبّع النصوص التاريخية، وخَرج بين العلم والتاريخ عند مناقشته للنصوص التاريخيّة، وفق التفسير العلميّ الدقيق للتاريخ وقد أوصلت القدرة المعرفيّة للشهيد السيّد محمّد باقر الصدر إلى درجة الاجتهاد في زمن قياسيّ، قلّما يصل إليه العلماء والمفكّرون، وهذا له دلالة واضحة على عبقريّته، ومنهاجه الشامل لبناء الأمّة الإسلاميّة، ويبدو أنّه قد درس التاريخ دراسة فاحصة، ووقف بدقّة على أوضاع التاريخ الإسلاميّ فضلاً عن أنّه وقف على مواضع الضعف في المناهج الدراسيّة في الحوزة العلميّة، فأخذ على عاتقه تشكيل جماعة من طلبة العلم من ذوي الوعي الفكري، في محاولة لبناء مدرسة جديدة، بعد أن أخذ الفكر الماركسيّ يجتاح العراق بعد ثورة الرابع عشر من تمّوز ١٩٥٨م، وقد أشار الدكتور علي سامي النشّار إلى النقلة النوعيّة في مؤلّفات السيّد الصدر بقوله: «لقد تعوّدنا لو خاض رجل الدّين في التجارب العلميّة أن تكون بضاعته مستوردة، أو لتوفيق بين العلم والدين، ولكنّك بإزاء فكر الصدر أمام أكاديميّ من الطراز الأول، يستعرض موضوعه من وجهة النَّظر الحديثة تفصيلاً حتى استوفاه عرض عالم متفتّح ليكشف للقارئ آخر الأمر أوجه التشابه والاختلاف، وأنّ

الاتجاه بين علماء الدين فريد، وعلى أمثاله المعتمد في التجديد لأنّه الجمع المتوازن الذي أخفق فيه الكثيرون، بين الأصالة والمعاصرة، أو بين التقليد والتجديد»[١].

وما ذهب إليه الأستاذ النشّار في غاية الصواب، ويتّفق رأيه مع عوامل النبوغ للسيّد الشهيد الصدر، وقد أراد سماحته لمدرسة النجف أن تكون رائدة لمنهج جديد متميّز في الدراسات العلميّة، وإنّ كتابه «الأسس المنطقيّة للاستقراء»، دليل على منهجيّة السيّد الصدر فإنّه أراد لمدرسة النجف الأشرف الخروج من سورها المحدود إلى العالم بواسطة خرّيجين تسلّحوا بالعلم والمنطق والحجّة والبرهان، وأراد في الوقت نفسه للقاعدة الشعبيّة أن تكون أداةً فعّالة لحماية تحرّكات المدرسة الفكريّة، فإنّه قد وضع في حساباته حجم المجابهة مع القوى المناهضة للفكر الإسلاميّ، وأراد أن تكون العلاقة بين قادة الفكر في الحوزة العلميّة، وبين شرائح المجتمع قويّة ومتينة، وبعيدة عن العواطف، وقد تمخّض رأيه عن ولادة مجلّة الأضواء، تحت إشراف جماعة العلماء في النجف الأشرف، وهذا الأمر أقلق السلطة، وأجهزتها الأمنيّة، وبقي هذا القلق السلطوي يلازمها حتى عام ١٩٧٠م، فأخذ الشهيد السيّد الصدر، بعد وفاة الإمام محسن الحكيم تطبيق أفكاره

(١) النشار: المشكاة ص ٣٩ ـ ٤٠.

الإصلاحيّة، وتنظيم المدرسة النجفيّة، فما كان للسلطة آنذاك إلاّ أن تفتح صفحة جديدة مع السيّد الصدر، ومطالبته بالتساهل مع الحكومة ومجاملتها، ولكن السيّد الشهيد الصدر، قد أصرّ على حرمة الانتساب إلى حزب البعث. عندها فُتحت ساحة الحرب مع السلطة وأجهزتها الأمنيّة، وما أقلقها كان التفاف الناس حول السيّد الشهيد، وتوافد المواكب المساندة له على مدينة النجف الأشرف، فأقدمت على اعتقاله في رجب عام ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، وقامت بمفاوضته على أمور خطيرة هي:

١ ـ تحريم الانتماء إلى حزب البعث

٢ ـ رفض تحريم الانتماء إلى حزب الدعوة

٣ ـ إلغاء التأييد للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة.

وكانت الحكومة في هذا الوقت تخطط للعدوان على الجمهوريّة الإسلاميّة، وأرادت للسيّد الشهيد أن يقف على الأقل موقف المحايد عند نشوب الحرب بين الطرفين.

وقد تبنّى موقفه هذا جمع من تلامذته، وهم:

- السيّد كاظم الحائري
- السيّد محمود الهاشمي
- السيّد محمّد باقر الحكيم
- السيّد محمّد صادق الصدر

- الشيخ عبد الهادي الفضلي
- السيّد عبد الكريم القزويني
- الشيخ محمّد رضا النعماني
- السيّد نور الدين الأشكوري
- الشيخ محمّد إبراهيم الأنصاري

وكانت محاضرات السيّد الصدر التي يلقيها في مقبرة آل ياسين، أظهرت ريادته في المواضيع الاقتصاديّة وبخاصّة كتاب «اقتصادنا»، وكتاب «البنك اللاربوي في الإسلام»، وكتاب «بحوث إسلاميّة» وكتاب «الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعيّة»، وكتاب «الإسلام يقود الحياة».

كان السيّد الشهيد في كل مؤلّفاته هذه موضوعيّاً محايداً، وناقداً محللاً، وكان قد استقى نصوصاً من مصادر متنوّعة، فعالج مبدأ الملكيّة المزدوجة، ومبدأ الحريّة الاقتصاديّة، ومبدأ العدالة الاجتماعيّة، وكان القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف في مقدّمة مصادره عند مناظراته الفلسفيّة والاقتصاديّة[١].

لقد استفدت من تعليقات الشهيد الصدر عند كتابتي عن الشيخ الطوسي في رسالتي الجامعيّة للحصول على شهادة الماجيستير في التاريخ من جامعة بغداد بين ١٩٧٢

(١) الحكيم: ملامح النبوغ الفكريّ عند الإمام الشهيد محمّد باقر الصدر، ص٢.

و١٩٧٤م، و كنتُ عند فراغ السيّد الصدر من أداء صلاة الجماعة في الحسينيّة الشوشتريّة أتقدم إليه بالأسئلة، ويجيبني عنها برحابة صدر، وبخاصة في عِلْمَي الحديث والرجال، فقد أكثرت عليه الأسئلة في أحد الأيّام، فخاطبني أحد تلامذته بالقول: سماحة السيّد بحاجة إلى الراحة، وتناول الطعام بعد صلاة الظهر والعصر، ولمّا سمع السيّد الصدر كلامه، انتفض غاضباً بوجهه، قائلاً: «إذا لم نفتح صدورنا لطلّاب العلم من الذي يقوم بالمهمّة، وإن السائل طالبٌ في جامعة بغداد ويكتب عن الشيخ الطوسي»، وإنّي قد رأيت علامات الغضب طافحةً على وجهه، وطلب إليّ استكمال الأسئلة، وأتذكّر أنّي قد سألته عن نصوص ذكرها في كتابه «المعالم الجديدة في الأصول»، لأنّها تتعلّق برسالتي وبالشيخ الطوسيّ ومدرسة النجف الأشرف، وأخذ يسترسل في حديثه، ويضيف لما كتبه في المعالم الجديدة في الأصول.

وفي حقيقة الأمر أنّ السيّد الصّدر، قد امتلك قدرةً فائقة في النقد الموضوعيّ، بأسلوب علميّ يقوم على أسس المعرفة بالنظريّات الفلسفيّة[١]، مما جعله يفكّر في تغيير المناهج الدراسيّة التي اعتادت عليها الحوزة العلميّة في النّجف الأشرف[٢].

(١) علاء الخطيب: الفكر الاقتصادي عند الإمامين الصدر والنورسي ص ٧٣.
(٢) مختار الأسدي: الشهيد الصدر ص ١٠.

لقد أراد أن يكون لكلّ طالب علم مجلس تبليغ في داره يضمّ الكسبة والمقرّبين إليه، وبهذا تتعزّز الروابط الاجتماعيّة والعقائديّة بين المجتمع والحوزة العلميّة، بعيداً عن الشكليّات التي سرعان ما تتلاشى عند الأزمات، وبخاصة السياسيّة منها.

كانت كتابات الشهيد الصّدر في مجلّة الأضواء، منهاج عمل للإسلاميين، ولا شكّ في أنّ هذا التحرّك السياسيّ والعقائديّ قد أقلق السلطة وأجهزتها الحزبيّة والأمنيّة، فأخذت تشدد الرقابة على السيّد الصدر وجماعته، وهيّأت طبقة من الحوزويّين السائرين في ركابها لمراقبته، ورصد نشاطاته ورفع التقارير السريّة عنه، وقد أشار مدير الأمن العام الدكتور فاضل البرّاك، إلى ذلك في حديث مع السيّد الصدر بقوله: «إنّني أتمكّن من إتلاف كلّ التقارير التي تُكتب ضدّكم، وتُرفع إلينا من مديريات الأمن، ولكن ما أفعل بالتقارير التي تمرّ إلى القيادة مباشرةً من فلان وفلان، دون أن تمرّ علينا؟». وذكر مدير الأمن للسيّد الصّدر أسماء معيّنة ونماذج من التقارير للسيّد الصدر[1].

ولكن السيّد الصدر بقي صامداً في موقفه لا بل ازداد رسوخاً بعد أن أقدمت السلطة على إعدام الشيخ عارف

(١) العبّاسي: البعد الدوليّ لاغتيال الإمام باقر الصدر ص ٢٧.

البصري، وخمسةٌ من قادة حزب الدعوة الإسلاميّة، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ، «والله لو أنّ البعثيين خيّروني بين إعدام أولادي الخمسة وبين هؤلاء، لاخترت أولادي الخمسة، وضحّيت بهم، إنّ الإسلام بحاجة إلى هؤلاء وليس إلى أولادي».

وكانت السلطة بعد وفاة الإمام السيّد محسن الحكيم عام ١٩٧٠، قد وضعت في حساباتها رسالة السيّد الصدر، وخشية انتشارها بين الأوساط الشعبيّة، بعد أن علمت أنّه يريد إصلاح الحوزة العلميّة وتنظيم المدرسة النجفيّة. فأرسلت عندئذ زيد حيدر (عضو القيادة القوميّة لحزب البعث)، إلى النجف الأشرف لمقابلة الشهيد الصدر، في محاولة لفتح صفحة جديدة معه، ومطالبته بالتعاون مع أجهزة الدولة[١].

في مقابل كلّ ذلك بقي السيّد الصدر صامداً على موقفه، وعلى فتواه بحرمة الانضمام إلى صفوف حزب البعث، وكان يردد فتواه في مجلسه، وقد حصلت الحكومة على تسجيل صوتيّ من أحد عملائها في مجلس السيّد الصدر[٢]. وعلى إثره تمّ اعتقال السيّد الشهيد الصدر عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

وكان في هذا الوقت راقداً في المستشفى، وبرفقة السيّد عبد الغني الأردبيلي، وقد وضع رجال الأمن

(١) الأسديّ، الشهيد الصدر ص ١٦٧.

(٢) البعد الدوليّ، المصدر السابق ص ٣٦.

القيد في يد السيّد الصدر دون مراعاة وضعه الصحيّ، ولمّا علمت الجماهير بالأمر تهافت عليه المراجعون، فاضطرّت السلطة إلى رفع القيد عن يديه، ثم نقله إلى ردهة الاعتقال[1]. ومن ثم أفرج عنه. ووضع تحت المراقبة، وفي العام ١٩٧٧م/ ١٣٩٧هـ، أقدمت السلطة على اعتقاله على إثر انتفاضة شهر صفر، وانبثاق الثورة الإسلامية في إيران، بعد أن رأت السلطة التفاف الجماهير حول السيّد الصدر وتوافدت الوفود على مدينة النجف الأشرف، وكان الاعتقال الأخير للشهيد السيّد الصدر علم ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، وقد كتب سماحة الشيخ محمّد رضا النعماني عن تفاصيل هذا الاعتقال، والسيّد كاظم الحائري في كتابه «الشهيد الصدر سموّ الذات وسموّ الموقف». وكانت الحكومة في اعتقالاتها المتكررة للسيّد الصدر تسعى إلى كسبه إلى جانبها، لأنّها كانت تفكّر بإعلان الحرب على الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران، إذ أبدت عدم ارتياحها من الإمام السيّد روح الله الخمينيّ (مفجّر الثورة الإسلاميّة)، وقد أراد بعض طلبة السيّد الشهيد الصدر مغادرته العراق، لكنّ الإمام الخمينيّ رفض هذه الفكرة، وأبرق إليه قائلاً: «سماحة حجّة الإسلام والمسلمين الحاج السيّد محمّد باقر الصدر دامت بركاته، علمنا أنّ سماحتكم تعتزمون مغادرة العراق بسبب بعض الحوادث، إنّني لا أرى من

(١) الحائري: الشهيد الصدر ص ١٤٧ـ ص ١٤٩.

الصالح مغادرتك مدينة النجف الأشرف، مركز العلوم الإسلاميّة، وإنّني قلقٌ من هذا الأمر آمل إن شاء الله إزالة قلق سماحتكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وقد أجابه السيّد الصدر بقوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم، سماحة آية الله العظمى الإمام المجاهد السيّد روح الله الخمينيّ دام ظله»، تلّقيت برقيّتكم الكريمة التي جسّدت أبوّتكم ورعايتكم الروحيّة للنجف الأشرف الذي لا يزال منذ أن فارقكم يعيش انتصاراتكم العظيمة وإنني أستمدّ من توجيهكم الشريف نفحةً روحيةً، كما أشعر بعمق المسؤوليّة في الحفاظ على الكيان العلميّ للنجف الأشرف، وأودّ أنّ أُعبّر لكم بهذه المناسبة عن تحيّات الملايين من المسلمين والمؤمنين في عراقنا العزيز الذي وجد في نور الإسلام الذي أشرق من جديد على يدكم نوراً هادياً للعالم كلّه وطاقة روحيّة لضرب المستعمر الكافر والاستعمار الأميركي خاصّة ولتحرير العالم من كلّ أشكاله الإجراميّة وفي مقدّمتها جريمة اغتصاب أرضنا المقدّسة في فلسطين، ونسأل المولى سبحانه وتعالى أن يمتّعنا بدوام وجودكم الغالي والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الخامس من رجب ١٣٩٩هـ/ النجف الأشرف.

محمّد باقر الصدر»[١].

---

(١) العبّاسي البعد الدوليّ ص ٣٧، الحائري: الشهيد الصدر ص ١٧٣، عادل رؤوف: محمّد باقر الصدر بين دكتاتوريتين ص ١٦٩ـ ١٧٠.

أدّت هذه البرقيّة الجوابيّة إلى فرض الإقامة الجبريّة على السيّد الشهيد الصدر، ثم اعتقاله وإعدامه، وقد أحدثت هذه الجريمة النكراء استنكاراً في الأوساط العلميّة والمنظّمات الدوليّة، في السابع عشر من أكتوبر ١٩٧٩م استنكرت منظّمة العفو الدوليّة اعتقال السيّد الصدر، وإعدام ستّة وثمانين من المؤيّدين له[١]. وأشارت المصادر إلى اعتقال وكلاء السيّد الصدر في المدن العراقيّة وهمّ:

١ ـ السيّد قاسم شبر
٢ ـ السيّد حسين السيّد هادي الصدر
٣ ـ السيّد حسين السيّد إسماعيل الصدر
٤ ـ السيّد قاسم المبرقع
٥ ـ السيّد محمّد حسين المبرقع
٦ ـ السيّد جاسم المبرقع
٧ ـ الشيخ عبد الجليل مال الله
٨ ـ الشيخ محمّد عليّ الجابري
٩ ـ السيّد عبّاس الشوكي
١٠ ـ الشيخ سامي طاهر
١١ ـ الشيخ عبد الجبّار المصري
١٢ ـ الشيخ مهدي السماوي
١٣ ـ الشيّد عبد الرحيم الياسري

(١) العبّاسي: البعد الدوليّ ص ٤٠.

١٤ـ الشيخ خزعل السوداني

١٥ـ الشيخ قاسم ضيف

١٦ـ الشيخ عبد الأمير الساعدي

١٧ـ السيّد عزّ الدين الخطيب

وأقدمت السلطة على إعدام عدد من المؤيّدين للسيّد الشهيد الصدر، من غير وكلائه، وأعدمت جماعة منهم[١].

وكان السيّد الصّدر قد أصدر بياناً في أثناء صراعه مع السلطة، في العشرين من رجب عام ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، طالب فيه بإطلاق ممارسة الشعائر الدينيّة، وإيقاف حملات الإكراه للانتساب إلى صفوف حزب البعث.

وفي العاشر من شعبان من السنة ذاتها أصدر بياناً توقّع فيه الشهادة وحذّر من الروح الطائفيّة، ودعا إلى الوحدة الاجتماعيّة[٢]. وإذا كانت السلطة قد أقدمت على جريمتها البشعة بإعدام المفكّر الإسلاميّ الكبير، والمُبدع الموسوعيّ السيّد محمّد باقر الصدر، فإنّها لم تكن قادرة على إيقاف قراءة مؤلّفاته، ذات العلوم والمعارف، وأصبحت ذات سمة عالمية، وتكرر طباعتها في العراق وخارجه، وإنّ قائمة المؤلّفات تشير إلى تعدد العلوم، وهي

(١) الحائري: الشهيد الصدر سموّ الذات وسموّ الموقف ص ١٧١ـ١٧٢.

(٢) العبّاسيّ: البعد الدوليّ ص ٤٣ـ٤٧

على النحو الآتي [1]:

١ ـ اقتصادنا.

٢ ـ الأسس المنطقيّة للاستقراء.

٣ ـ الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعيّة.

٤ ـ بحوثٌ إسلاميّة.

٥ـ بحوثٌ في شرح العروة الوثقى (في أربعة أجزاء).

٦ـ بحوثٌ في علم الأصول.

٧ـ الإسلام يقود الحياة (في ست حلقات).

٨ـ البنك اللاّ ربوي في الإسلام.

٩ـ بحثٌ حول الإمام المهديّ.

١٠ـ بحثٌ حول الولاية.

١١ـ تعليقات على الأسفار.

١٢ـ دروسٌ في علم الأصول (في أربعة أجزاء).

١٣ـ شرح العروة الوثقى (كتاب الطهارة والخمس).

١٤ـ غاية الفكر في علم الأصول.

١٥ـ فدك في التاريخ.

١٦ـ فلسفتنا.

---

(١) حرز الدين: معارف الرجال١/ ١٨، الأمينيّ: معجم رجال الفكر والأدب في النجف ص ٢٧٥، كوركيس عوّاد: معجم المؤلّفين العراقيين ٣/ ١٠٩٠ ١١٠، العبّاسي: البعد الدوليّ لاغتيال السيّد محمّد باقر الصدر ص ١٢٦ـ١٤٠، السراج: الإمام الحكيم ص ٧٢، محمّد أمين نجف: علماء في رضوان الله ص ٣٤٨، الحائري: الشهيد الصدر سموّ الذات وسموّ الموقف ص ٨٧ / ص ٩، الحسينيّ: محمّد باقر الصدر ص ٦٥.

١٧ـ في علم الأصول.
١٨ ـ الفتاوى الواضحة.
١٩ ـ المرسل والرسول والرسالة.
٢٠ ـ نشأة التشيّع والشيعة (مقدّمة كتاب تاريخ الإماميّة للدكتور عبدالله فيّاض).
٢١ ـ موجز أحكام الحجّ.
٢٢ ـ المعالم الجديدة للأصول.
٢٣ ـ ماذا تعرف عن الاقتصاد الإسلاميّ.
٢٤ ـ مناهج الصالحين (تعليقه على رسالة السيّد محسن الحكيم).
٢٥ ـ مجتمعنا.
٢٦ ـ المدرسة القرآنيّة.
٢٧ ـ التفسير الموضوعي للقرآن.
٢٨ ـ نظرات في العبادات.
٢٩ ـ رسالة في المنطق.
٣٠ ـ بحث في المرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة
٣١ ـ تعليقه على صلاة الجمعة من الشرائع.
٣٢ ـ تعليقه على مناسك الحجّ للإمام السيّد أبي القاسم الموسويّ الخوئي.
٣٣ ـ المدرسة الإسلاميّة (بحوثٌ في حلقات).
٣٤ ـ تعليقه على بلغة الراغبين للإمام الشيخ محمّد رضا

آل ياسين.

٣٥ ـ لمحة فقهيّة تمهيديّة عن مشروع دستور الجمهوريّة الإسلاميّة.

٣٦ ـ المجموعة الكاملة لمؤلّفات السيّد محمّد باقر الصدر في خمسة عشر جزءاً، إصدار دار التعارف للمطبوعات/ بيروت ١٩٩٣م.

وكتب الشهيد السيّد الصدر بحوثاً علميّة في مختلف فروع المعرفة ونشرت في مجلاّت صادرة في العراق وخارجه، وهي:

١ ـ مع الماركسيّة الماديّة التاريخيّة في تفاصيلها، مجلّة الأضواء العدد (١٩) السنة الأولى ١٣٨٠هـ.

٢ ـ نظام الإنتاج، مجلّة الأضواء، العددان ١٣ و ١٤ السنة الأولى ١٣٨١هـ.

٣ ـ الحرّية في القرآن، مجلّة الأضواء، العدد الأول، السنة الثانية ١٣٨١هـ.

٤ ـ الاتّجاهات المستقبليّة لحركة الاجتهاد، مجلّة الإيمان، الأعداد (٧ و١٠) السنة الثالثة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، مجلّة الهادي، العدد الثالث السنة الثانية ١٣٩٣هـ.

٥ ـ الاتّجاهات المستقبليّة لحركة الاجتهاد في النجف، الموسم الثقافيّ الثاني لجمعيّة الرابطة الأدبيّة.

٦ ـ دور الأئمة في الحياة الإسلاميّة، مجلّة الإيمان،

العددان (٣ و٤) السنة الثانية ١٣٨٧هـ.

٧ ـ اليقين الرياضيّ والمنطق الوضعيّ، مجلّة الإيمان، العددان (١ و٢) السنة الثانية ١٣٨٤هـ.

وكتب باحثون ومؤلفون عن الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر كتباً وبحوثاً علميّة وهي على النحو الآتي:

١ ـ الجهاد السياسيّ للسيّد الصدر، للسيّد صدر الدين القبانجي.

٢ ـ الإمام الشهيد محمّد باقر الصدر في سيرته ومنهجه للسيّد محمّد الحسيني.

٣ ـ الشهيد الصدر بين أزمة التاريخ وذمّة المؤرّخين، للأستاذ مختار الأسدي.

٤ ـ المرجع الصدر والتنظيم الإسلاميّ، للأستاذ عبّاس الجنابي، جريدة لواء الصدر، العدد ١٤٤، لسنة ١٩٨٤م.

٥ ـ البعد الدوليّ لاغتيال الإمام باقر الصدر، للأستاذ محمّد حسن محمّد العبّاسي.

٦ ـ الجانب الاقتصادي في أعمال السيّد محمّد باقر الصدر، للأستاذ فارس أحمد الخليل، مجلّة رسالتنا، العددان(٢ و٣) لسنة ١٤٠٣هـ.

٧ ـ مميّزات المنهج الفكريّ عند الشهيد الصدر للأستاذ حسين الغفّاري مجلّة سروش، العدد ٣٧.

٨ ـ البعد الدوليّ لاغتيال السيّد محمّد باقر الصدر للأستاذ محمّد العبّاسي، مجلّة النور، العدد ٢٢١ لسنة ١٤٠٦هـ.
٩ ـ الأبعاد السياسيّة لإعدام السيّد الإمام الشهيد محمّد باقر الصدر للأستاذ خالد توفيق. مجلّة سروش للعالم الإسلاميّ، العدد ١٥ السنة الثانية.
١٠ـ المقومات الأساسيّة لانتفاضة رجب، نور الدين عليّ، جريدة الشهادة، العدد ١٠٤، السنة الثانية ١٤٠٥هـ.
١١ـ استشهاد الصدر من منظور حضاريّ، إصدار حزب الدعوة في لبنان.
١٢ـ ملامح النبوغ الفكري عند الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر، للدكتور حسن الحكيم، مجلّة الأصالة، العدد الثاني.
١٣ـ أصالة المعرفة التاريخيّة في فكر الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر للدكتور حسن الحكيم.
١٤ـ نظريّة العمل السياسيّ عند الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر، للسيّد محمّد باقر الحكيم، مجلّة المنهاج، العدد ١٧، السنة الخامسة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
١٥ـ المعالم الفكريّة والعلميّة لمدرسة السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر، للسيّد محمود الهاشميّ، مجلّة المنهاج، العدد ١٧، السنة الخامسة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٦ـ السيّد محمّد باقر الصدر وتجديدات الفكر الإسلاميّ المعاصر، للأستاذ زكي الميلاد، مجلّة المنهاج، العدد١٧.

١٧ـ الإمام الشهيد محمّد باقر الصدر، التجربة التاريخيّة والإنسان، للأستاذ كمال السيّد، مجلّة المنهاج، العدد ١٧.

١٨ـ الإبداع الفكري والعطاء العلميّ للشهيد السيّد محمّد باقر الصدر، الأعمال شبه الكاملة، للأستاذ محمّد دكير، مجلّة المنهاج، العدد ١٧.

١٩ـ منهج السيّد محمّد باقر الصدر في إثبات أصول الدين، للدكتور حسين سعد، مجلّة المنهاج، العدد ١٧.

٢٠ـ نظريّة المعرفة في ضوء الأسس المنطقيّة للاستقراء، للسيّد عمّار أبو رغيف، مجلّة المنهاج، العدد ١٧.

٢١ـ نقد نظريّة المعرفة عند السيّد محمّد باقر الصدر للدكتور جميل قاسم، مجلّة المنهاج العدد ١٧.

٢٢ـ تجديد علم الأصول قراءة في كتابات الإمام الشهيد محمّد باقر الصدر، للدكتور حسن حنفي، مجلّة المصباح العدد ١٧.

٢٣ـ حول منهج الشهيد الصدر في معرفة المذهب الاقتصاديّ الإسلاميّ ودفع الإشكال عنه، للشيخ محمّد علي التسخيري، مجلّة المصباح، العدد ١٧.

٢٤ـ اقتصادنا من وجهة نظر مختلفة دراسة في قراءة نقديّة

متعسّفة، للأستاذ محمّد الحسيني، مجلّة المصباح العدد ١٧.

٢٥ـ فقه التغيير بين سيّد قطب والسيّد محمّد باقر الصدر، للدكتور أحمد راسم النفيس، مجلّة المنهاج، العدد ١٧.

٢٦ـ الأسس الإسلاميّة عرض وبيان لما وضعه الشهيد الصدر من أصول للدستور الإسلاميّ، للدكتور عبد الهادي، مجلّة المنهاج، العدد ١٧.

٢٧ـ الشهيد الصدر ونهضة الفكر الإسلاميّ المعاصر، قراءة في كتاب «تجديد الفقه الإسلاميّ»، محمّد باقر الصدر بين النجف وشيعة العالم، للدكتور شبلي الملاّط، والبحث للأستاذ محمّد دكير، مجلّة المنهاج، العدد ١٧.

٢٨ـ الفكر السياسيّ والدستوريّ عند الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر. للدكتور محمّد طيّ، مجلّة المصباح، العدد ١٧.

٢٩ـ رؤية الشهيد الصدر لظاهرة الدولة الدينيّة وضرورات الدعوة إليها «شهادة الأنبياء وخلافة الأمّة»، للأستاذ نبيل علي صالح، مجلّة المنهاج، العدد ١٧.

٣٠ـ هموم المنبر عند الشهيد محمّد باقر الصدر، للشيخ أحمد الوائلي، مجلّة المنهاج، العدد ١٧.

٣١ـ التفسير الإسلاميّ للتاريخ ودور الشهيد الصدر فيه، للأستاذ صائب عبد الحميد، مجلّة المنهاج، العدد ١٧.

٣٢ـ في مرايا الشعراء، ملامح من صورة السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر، للأستاذ الدكتور عبد المجيد زراقط، مجلّة المنهاج، العدد ١٧.

٣٣ـ الصدر في رؤية العلماء والمفكّرين وهم: السيّد محمّد حسن الأمين، الشيخ حسن طراد، حسن الحنفي، الدكتور محمّد البشير الهاشميّ، الشيخ الدكتور فتحي يكن.

٣٤ـ رحلة الصبر في إظهار مثوى السيّد الصدر، للأستاذ محمّد جواد الجزائري.

٣٥ـ الشهيد الصدر سموّ الذات وسموّ الموقف، للسيّد كاظم الحسينيّ الحائري.

٣٦ـ محمّد باقر الصدر بين دكتاتوريتين، للأستاذ عادل رؤوف.

٣٧ـ الفكر الاقتصادي عند الإمامين الصدر والنورسي، للأستاذ عادل الخطيب.

٣٨ـ الشهيد الصدر سنوات المحنة وأيّام الحصار، للشيخ محمّد رضا النعماني.

٣٩ـ منهج الشهيد الصدر في تجديد الفكر الإسلاميّ، للشيخ عبد الجبّار الرفاعي.

٤٠ـ الإمام محمّد باقر الصدر سموّ الذات وخلود العطاء، لمجموعة من الباحثين.

٤١ـ الإمام السيّد محمّد باقر الصدر معايشة من قريب للسيّد محمّد الحيدريّ.

٤٢ـ الجهاد السياسيّ للشهيد الصدر، للسيّد صدر الدين القبانجي.

٤٣ـ التجديد الكلاميّ عند الشهيد الصدر، للأستاذ الأسعد بن عليّ.

٤٤ـ نحو مفاهيم إسلاميّة في الفلسفة، في ضوء كتاب فلسفتنا للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر، للأستاذ محمّد حسين غيبي، مجلّة المسار، العدد السادس لسنة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٤٥ـ الإمام السيّد محمّد باقر الصدر في ذاكرة العراق، أضواء على تحرّك المرجعيّة الدينيّة والحوزة العلميّة في النجف الأشرف.

٤٦ـ الشهيد محمّد باقر الصدر المواجهة مع الأنظمة الحاكمة، للأستاذ عادل رؤوف.

٤٧ـ الإمام الشهيد الصدر تبنّي الأطروحات الحركيّة للتغيير ومخاطبات التجديد، للأستاذ وليد الحلي، مجلّة الفكر الجديد لسنة ١٩٩٨م.

٤٨ـ الشهيد الصدر والعمل المرجعيّ، للأستاذ طه محمّد، مجلّة الموقف العدد الخامس، السنة الأولى.

٤٩ـ معاناة الشهيد الصدر مع الطاغية، سيرة حياة آية الله العظمى السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره.

٥٠ـ المجتمع الإنساني في فكر الشهيد محمّد باقر الصدر للدكتور حاكم عبد ناصر.
٥١ـ المجتمع الفرعوني دراسة موضوعيّة في المذهب الاجتماعي مستوحاة من محاضرات الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر للأستاذ محمّد علي أمين.
٥٢ـ محمّد باقر الصدر حياة حافلة وفكر خلاّق، للسيّد محمّد الحسيني.
٥٣ـ محمّد باقر الصدر تكامل المشروع الفكري والحضاري، للأستاذ صائب عبد الحميد.
٥٤ـ فلسفة الصدر دراسة في المدرسة الفكريّة للإمام الصدر، للأستاذ محمّد عبد اللاوي.
٥٥ـ دراسة في فكر الشهيد الصدر للأستاذ نعمة الله الموالي.
٥٦ـ محمّد باقر الصدر دراسات في حياته وفكره لمؤسسة المعارف للمطبوعات.
٥٧ـ شهيد الأمّة وشاهدها السيّد محمّد باقر الصدر، للشيخ محمّد رضا النعماني.
٥٨ـ الإمام الشهيد تأمّلاتٌ في فكره وسيرته، للدكتور إبراهيم الجعفريّ، مجلّة الفكر الجديد لسنة ١٩٩٣م.
٥٩ـ بحث دور الصدر في التطور الفقهي، للدكتور الشيخ عبد الهادي الفضلي، مجلّة قضايا إسلاميّة لسنة ١٩٩٦م.

٦٠ـ البحث القرآنيّ عند السيّد محمّد باقر الصدر، للأستاذة سحر جاسم عبد المنعم الطريحي.

٦١ـ التجديد الفقهيّ والأصوليّ عند السيّد محمّد باقر الصدر، للأستاذ محمّد جاسم عبّود.

٦٢ـ الرؤية الشموليّة للمفكّر الإسلاميّ الشهيد السعيد السيّد محمّد باقر الصدر، للدكتور الشيخ صاحب محمّد حسن نصّار، مجلّة الأصالة، العدد الرابع.

٦٣ـ مفهوم البنك اللاّ ربوي الإسلاميّ في فكر السيّد الصدر، للأستاذ طه حسين علي، مجلّة الأصالة، العدد ٣١.

***

الشهادة والخلود

استُشهد السيّد محمّد باقر الصدر في الثامن من نيسان عام ١٩٨٠م، في شهر رجب ١٤٠١هـ، في مديريّة الأمن العامّة في بغداد، بحضور رئيس الجمهوريّة صدّام حسين، وقد امتنع الجنود من إطلاق النار عليه، فما كان من صدّام إلاّ وأخرج مسدّسه وأطلق مجموعة من الرصاصات على وجه السيّد الصدر[١].

وبعدها حملت سيّارة الأمن جسده الطاهر، وجسد أخته السيّدة آمنة الصدر إلى النّجف الأشرف، ولم يحضر الدفن أحد من أسرته سوى السيّد محمّد صادق الصدر، وأشار أحد الحفّارين في النّجف الأشرف إلى آثار واضحة كانت على جسده وجسد أخته «بنت الهدى»[٢].

إلاّ أنّه ورد في بعض المراجع الحديثة : «لمّا أُنزل السيّد الصدر في قبره كان جسده ملطّخاً بالدماء والقيد الحديديّ

(١) العبّاسي، البعد الدولي ص ٩.

(٢) المصدر نفسه.

يكبّل جسده[1]. ونحن نشكّ في هذه الرواية، لأنّ جثمان السيّد الشهيد سُلّم للسيّد محمّد صادق الصدر الذي تولّى عملية الغسل والدفن».

وأحدثت جريمة إعدام السيّد الصدر ضجّة عالميّة، واستنكاراً من الأوساط السياسيّة، وأصدرت منظّمة العفو الدوليّة تقريراً برقم (٧٢١/ ٢٠١) للعمل الدوريّ بتاريخ ١٥/ ٤/ ١٩٨٠، أشارت فيه إلى إعدام السيّد محمّد باقر الصدر واخته العلويّة آمنة الصدر «بنت الهدى»، وإعدام ٩٧ شخصاً خلال شهر مارس/ آذار، منهم ٤٥ من ضبّاط الجيش العراقيّ، و٥٢ من المواطنين، مُعظمهم من الشيعة، ونشرت جريدة السفير اللبنانيّة، بتاريخ ٨/ ٤/ ١٩٨٠ مقالاً بعنوان: «أنباء عن اعتقال السيّد الصدر»، ونشرت جريدة النهار اللبنانيّة أيضاً بتاريخ ١٠/ ٤/ ١٩٨٠، بعنوان: «مظاهرة أمام السفارة العراقيّة في دمشق احتجاجاً على اعتقال الإمام محمّد باقر الصدر»، ونشرت جريدة السفير بتاريخ ١١/ ٤/ ١٩٨٠ خبراً عن إضراب الضاحية الجنوبيّة لبيروت احتجاجاً على اعتقال السيّد الصدر، وعند شياع خبر إعدامه، أقفلت المدارس والمتاجر والمحلاّت في برج البراجنة والغبيري وحيّ السلّم والشيّاح والأوزاعي أبوابها، وكان خبر الإعدام

(١) المصدر السابق ص ٤٨، محمّد أمين نجف: علماء في رضوان الله ص ٣٤٩.

لم يصل بعد إلى كثير من اللبنانيّين، لكتمان الحكومة العراقيّة ووسائل الإعلام، ولذلك كانوا يطالبون بإطلاق سراحه بعد عمليّة الإعدام، ونشرت جريدة القبس الكويتيّة خبراً بعنوان: «أنباءٌ متضاربة عن اغتيال الزعيم الدينيّ في العراق»، ونشرت جريدة انقلاب إسلاميّ في إيران نبأ إعدام السيّد الصدر. وأخذت بعد ذلك الصحف ووسائل الإعلام تؤكّد جريمة السلطة العراقيّة بتنفيذ حكم الإعدام، ونشرت جريدة صوت الشغّيلة اللبنانيّة خبراً بعنوان: «النظام العراقي يرتكب جريمة نكراء، باغتياله الإمام آية الله السيّد محمّد باقر الصدر وأسرته»، وأعلنت إذاعة صوت الثورة العربيّة، نبأ إعدام السيّد الصدر، ونشرت جريدة النهار اللبنانيّة مقالاً بعنوان: «الخمينيّ يأمر بالتحقيق في مصير السيّد محمّد باقر الصدر». وبتاريخ ١٦/ ٤/ ١٩٨٠م، نشرت جريدة السفير مقالاً دعت فيه الجيش العراقيّ إلى الثورة، وأُعلن الحداد الوطنيّ في إيران لمدّة ثلاثة أيّام، وفي يومَي السابع عشر والثامن عشر من نيسان عام ١٩٨٠م، أوردت الصحف العالميّة بيانات عن إعدام السيّد الصدر، ونشرت جريدة السفير بياناً عن حركة التحرر الإسلاميّ في العراق، والتي مقرّها في لندن، ونشرت جريدة الوطن الكويتيّة، وجريدة صوت الشغّيلة اللبنانيّة أخباراً عن أعمال العنف في العراق بعد تنفيذ عمليّة إعدام السيّد الصدر، وبتاريخ ٢٤/ ٤/ ١٩٨٠م، نشرت جريدة النهار اللبنانيّة خبراً

بعنوان: «المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى وحركة أمل ينعيان السيّد محمّد باقر الصدر، ويُعلنان الحداد ثلاثة أيّام»، ونشرت جريدة السفير الخبر نفسه بالتاريخ المذكور. وأصدرت حركة أمل بياناً نعت فيه السيّد الصدر، ونشرت صحيفة أمل بياناً نعت فيه الإمام الصدر، بعنوان: «زنيم بغداد صدّام التكريتيّ، يغتال الإمام السيّد محمّد باقر الصدر وشقيقته المجاهدة بنت الهدى»، وأوردت جريدة السفير بتاريخ الخامس والعشرين من نيسان عام ١٩٨٠م، ردود الفعل الشعبيّة في البحرين عند ورود أنباء إعدام السيّد الصدر وقد أطلقت الشرطة الغاز المسيّل للدموع على الجماهير المشاركة في مسيرة الاحتجاج.

أمّا في مدينة النجف الأشرف، فقد طوّقت قوّات الأمن المدينة من جميع جوانبها ونزلت قطعات من الجيش الشعبيّ للشوارع والأسواق، تحسّباً من وقوع اضطرابات، وبقي المجتمع النجفيّ في قلق حول حقيقة إعدام السيّد الصدر نتيجة كتمان السلطة العراقيّة للخبر، وشيوع الخبر من أواسط الإعلام العالميّة، وتأكّد للجميع أنّ السيّد الصدر وأخته بنت الهدى قد دُفنا سرّاً في مقبرة وادي السلام، وأخفت السلطة معالم القبرين، ولكن بعد سقوط النظام في التاسع من آذار عام ٢٠٠٣م، تمّ التعرّف على قبر الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر من العاملين في مقبرة وادي

السلام، وهم السيّد كامل العميدي، وعبد الحمزة حسن الظالمي، وعزيز ناجي الحلّي، وعبّاس بلاش، وفاضل الموسويّ، وقام الأستاذ محمّد جواد الجزائري بدراسة جامعيّة عن الشهيد الصدر، وأكّد موضع مقبرته بعد لقاءات مع العاملين في مقبرة وادي السلام، وأصدر كتابه بعنوان: «رحلة الصبر في إظهار مثوى الشهيد الصدر». وشارك في الندوة الفكريّة عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، عدد من الباحثين والشعراء ومنهم الدكتور داوود العطّار ومن قصيدته:[١]

باقر الصدر منّا سلاما
أيّ باغٍ سقاك الحِماما
أنت أيقظتنا كيف تغفو
أنت أقسمت أن لن تناما

ومن قصيدة الأستاذ محمّد حسين علاوي غيبيّ «أزف الوعد يا فداء[٢]»:

يا جرحاً تضّج فيها الدماءُ
وعزاءً ما عاد فيه عزاءُ
وعيونٌ بكت مصابَكَ دهراً
تعب اليومَ من بكاها البكاءُ

(١) الحائري: الشهيد الصدر ص ٢٣٠.
(٢) غيبيّ: خذيني كما شئت ١/ ١٢٢.

فـتـصـدّى لـفـكـركَ الأدعـيـاءُ

وتخلّت عـن رزئِـهـا كربلاءُ

وتمادى أهل السقيفةِ في الغيِّ

ونـالـت أحـفـادَكَ الـدّهْـمـاءُ

وبسيف قد حُـزَّ نحرُكَ ظلماً

يُقتلُ الـيـومَ أهلُنا الأبـريـاءُ

ويقول:

يا نفوساً ما باركتها السَّماءُ

وعـقـولاً ما شـعَّ فيها السَّناءُ

وزمـانـاً لا يـدركُ الـعـزُّ فيهِ

مـاتَ فيه الـرّجـا وعـمَّ البلاءُ

فـإذا يُقتلُ المجاهدُ ظُلْماً

يـتـغـنّـى بـقـتـلِـهِ الـشُّـعـراءُ

***

الفصل الثاني

الفكر الإماميّ في فلسفة الشهيد الصدر

كانت نظريّة الإمامة وأبعادها العقائديّة والسياسيّة والاجتماعيّة قد أولاها السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر أهميّة في دراساته وبحوثه، لأنّها هي القائدة بعد ختام النبوّة بالنبيّ الكريم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد رشّحت السماء أمير المؤمنين عليه السلام، لمنصب الإمامة بعد النبوّة لقيادة الأمّة، فيقول السيّد الشهيد الصدر: «إنَّ رسول الله لم ينصّب عليّاً مرجعاً أعلى المسلمين من بعده على الصعيد الاجتماعيّ فقط، بل نصّبه مرجعاً أعلى للمسلمين من بعده على الصعيد الاجتماعيّ والفكريّ معاً»[1].

وإنّ المتتبّع للأحاديث النبويّة الشريفة ومضامينها النظريّة، ولبيعة الغدير ومضامينها التطبيقيّة، تتوضّح لديه نظريّة الإمامة في قيادة الأمّة. بعد عصر الرسالة، فقد امتلك الإمام عليّ عليه السلام، العمقَين الفكريّ والاجتماعيّ،

(١) الصدر، مجلّة قضايا إسلاميّة معاصرة، العدد الثالث لسنة ١٤١٧هـ ص ٦٣١.

ما أهّله لقيادة الأمّة، وقد أُلحقت به العصمة التي جمعت بين النبوّة والإمامة، فيقول السيّد الشهيد الصدر: «إنّ العصمة عبارة عن النزاهة في كلّ فكرة، وفي كلّ عاطفة وكلّ شأن، والنزاهة في كلّ هذا عبارة عن انصهار كامل مع مفاهيم وأحكام الرسالة الإسلاميّة في كلّ مجالات هذه الأفكار والعواطف والشؤون»[١] وقد التقت سمات النبوّة بالإمامة بالامتناع عن المعاصي، وهذا لطفٌ من الله تعالى بالأنبياء، بأئمّة أهل البيت عليهم السلام، وهذا الرابط هو ما هيّأ الإمام عليّاً عليه السلام لقيادة الأمّة بعد وفاة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، ويقول السيّد الصدر: «إنَّ النبيّ الكريم عَهد لأمير المؤمنين عليه السلام، مستقبل الدعوة، وزعامة الأمّة من بعده فكريّاً وسياسيّاً»[٢].

لأنّ عليّاً عليه السلام، قد أُعدّ لهذ الموقع القياديّ لامتلاكه مؤهلات القيادة بإيمانه الراسخ بالرسالة، وشجاعته الفائقة بالدفاع عنها، وإنّ الباحث والمتتبّع لأحداث التاريخ، يقف بدقّة على هذا الواقع بعد انتهاء عصر النبوّة، فيقول السيّد الصدر: «كان الإمام هو المفزع والمرجع الفكريّ لحلّ أيّ مشكلة مستعصية على السلطة الحاكمة حينذاك»[٣]. واضعاً مصلحة الأمّة، فوق أيّ اعتبار، وإن تولّى السلطة بواقعها

---

(١) الصدر: أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلاميّة ص ١٧٢.

(٢) الصدر: نشأة التشيّع والشيعة ص ٦٤ـ٦٥.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٨.

التاريخيّ المفروض على المجتمع، فإنّه كان المُخطط للقيادة العسكريّة، والمرشد في القضايا الاجتماعيّة وبقي الأئمّة عليهم السلام، في تأدية واجباتهم تجاه الأمة سواء عبر الثورة المسلّحة أو عن طريق هداية الحاكم والمحكوم. وإن تعرّضوا للسجن والشهادة إلى حين ظهور الإمام الغائب محمّد بن الحسن المهديّ عجّل الله فرجه الشريف، بتحقيق دولة العدل الإلهيّ في الأرض، فكتب الشهيد السيّد الصدر، بحثه الموسوم «بحث حول المهديّ»، في محاولة لإزالة الخلاف بين المسلمين، مستدلّاً بالأدلّة والبراهين فيقول: «إنّه كلّما توقّف الحفاظ على حياة حجّة الله في الأرض على تعطيل قانون طبيعيّ، كانت إدامة حياة ذلك الشخص ضروريّة لإنجاز مهمّته التي أُعدّ لها فدخلت العناية الربّانيّة في تعطيل ذلك القانون لإنجاز ذلك»[1]. وقد استند الفكر الإماميّ في موضوع الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف على العناية الإلهيّة، والإعجاز الربّانيّ، وقد عالج السيّد الصدر هذه المسالة بدّقة، ما يستدلّ على بقاء الإمام عجّل الله فرجه الشريف، من خلال الأحاديث النبويّة الشريفة، والنصوص التاريخيّة التي تؤشّر على الإمام محمّد بن الإمام الحسن العسكريّ عليهما السلام، فيقول: «جاء الواقع الإماميّ الاثنا عشريّ، ابتداءً من الإمام عليّ عليه السلام وانتهاءً بالمهديّ، ليكون التطبيق الوحيد

(١) الصدر: بحثٌ حول المهديّ ص ٧٨.

المعقول لذلك الحديث الشريف»[١]. وبعد تقديم الدلائل العلميّة يقول: «إنّ مظاهر الغيبة الصغرى يُمكن أن تُعتبر بمثابة تجربة علميّة لإثبات حالها من واقع موضوعيّ، والتسليم بالإمام القائد، ولادته وحياته وغيبته وإعلانه العام عن الغيبة الكبرى[٢]».

وأكّد على أنّ عدم ظهور الإمام المهديّ عجّل الله فرجه الشريف، يعود لأسباب ربّانيّة بقوله: «لأنّ الرسالة التي تعتمدها عمليّة التغيير، هنا ربّانيّة من صُنع السماء لا من صُنع الظروف الموضوعيّة»[٣].

وتتبع الشهيد السيّد الصدر تطوّر الفكر الإماميّ بعد الغيبة الكبرى من خلال آراء الإماميّة بدءاً من القرن الرابع الهجريّ، الموافق للقرن العاشر الميلاديّ، فوقف على آراء الفقيهَيْن الكبيرين: أبي محمّد الحسن بن عليّ بن أبي عقيل النعماني، وأبي على بن محمّد بن أحمد بن الجنيد الكاتب الإسكافيّ، واستمرّ في دراسة التطور العلميّ في عصر الشيخ المفيد أبي عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان، المتوفّى عام ٤١٣هـ، وما بعد من علماء الإماميّة فيقول: إنّ الشيخ المفيد نقد جملة من آراء الفقيهَيْن: النعماني والإسكافي[٤]. ومن المحتمل أنَّ

(١) المصدر السابق ص ١٠٧.
(٢) الصدر: بحث حول الولاية ص ١١١.
(٣) المصدر نفسه ص ١٦.
(٤) الصدر: المعالم الجديدة للأصول ص ٥٥.

الرأي بالقياس كان وراء النقد العلميّ، لأنّ علماء الإماميّة قد ابتعدوا عن مؤلّفات الفقيهين النعماني والإسكافيّ، ولم يعوّلوا عليهما، وإن كانت حسنة التصنيف[١].

وعند تعرّض السيّد الصّدر لآراء الشيخ أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسيّ، المتوفّى في العام ٤٦٠هـ في كتابه «المبسوط» وجد فيه اجتهادات واستدلالات عقليّة وبراهين قطعيّة، وهذا ممّا يؤشّر على المراحل البدائيّة من تطوّر الفكر الفقهيّ التي مرّ بها الفكر الإماميّ، ونما من خلالها[٢]. وهذا ما أكّده الشيخ الطوسيّ بقوله: «وكنت على قديم الوقت حديثه متشوّق النفس إلى كتاب يشتمل على ذلك تتوق نفسي إليه فتقطعني عن ذلك القواطع، وتشغلني الشواغل، وتضعف نيّتي أيضاً، فيه قلّة رغبة هذه الطائفة فيه، وترك عنايتهم به، لأنّهم ألفوا الأخبار وما رَوَوْه من صريح الألفاظ حتّى أنّ مسألة لو غُيّر لفظها، وعبّر عن معناها بغير اللفظ المعتاد لهم تعجّبوا منه، وقصر فهمهم عنها»[٣].

ووضع السيّد الصدر أمامه كتابي الشيخ الطوسي «النهاية والمبسوط»، ووازن بينهما، بعد دراسة

(١) النجاشيّ: الرجال ص ٢٩٩، الطوسيّ: الفهرست ص٦٠، ابن شهرآشوب: معالم العلماء ص٨٧، العلاّمة الحلي: الرجال ص١٤٥.

(٢) الصدر: المعالم الجديدة للأصول ص ٥٩ـ ٦٠.

(٣) الطوسيّ: المبسوط ص٣.

لمنهجهما، فوجد أنّ كتاب «المبسوط» قد تخطّى فيه منهجيّة كتاب «النهاية» الذي لم يتجاوز فيه مضامين الأخبار، بينما جاء كتاب المبسوط بأدلّة عقليّة، وبراهين قطعيّة، ومن المحتمل أنّ محيط مدينة بغداد في القرنين الرابع والخامس الهجريين، قد بلغ فيها التيّار المعرفيّ مبلغاً كبيراً، وما كان يحصل في معاهدها ومؤسساتها العلميّة من مناظرات ومحاججات، وقد تحدّت التيّارات العلميّة الفكريّة، الآراء الإماميّة، ويقول الشيخ الطوسيّ: إنّهم نسبوا للإماميّة قلّة الفروع، وقلّة المسائل وقالوا إنّهم أهل حشو ومناقضة[١]. وكان السيّد الشهيد الصدر قد وقف على آراء الشيخ الطوسيّ في كتاب المبسوط، فوجد فيه تطوّراً فكريّاً ومعرفيّاً بقوله: «جاء محاولةً ناجحة وعظيمة في مقاييس التطوّر العلميّ لنقل البحث الفقهيّ من نطاقه الضيّق المحدود في أصول المسائل غلى نطاق واسع يمارس الفقيه فيه التفريغ والتفصيل والمقارنة بين الأحكام، وتطبيق القواعد العامّة، ويتبع أحكام مختلف الحوادث والفروض في ضوء المعطيات المباشرة للنصوص»[٢]. وقد استخلص السيّد الشهيد الصدر من خلال دراسته للفكر الإماميّ في القرن الخامس الهجريّ وجود اتّجاهين فكريين هما:

(١) الطوسيّ: المبسوط ص ٣.

(٢) الصدر: المعالم الجديدة للأصول ص٥٩ـ٦٠.

١ـ الاتّجاه الأصوليّ.

٢ـ الاتّجاه الإخباري.

وقد أطلق السيّد الصدر لفظ «الإخباريّة القديمة» على الاتجاه الأوّل، لأنها تعبّر عن مستوى من مستويات الفكر الفقهيّ لا عن مذهب من مذاهبه(١). وهذا له دلالة على أنّ المنهج الإخباريّ كان يُمثّل مرحلة من مراحل الفكر الفقهيّ. قد خضع له جماعةٌ من الفقهاء، الذين لم تسنح لهم ثقافتهم الخاصّة تجاوزها والإسهام بتطوير الدراسات الفقهيّة، والاستجابة إلى حاجة الناس للتجديد في البحوث الفقهيّة والتنوّع بها(٢). وأراد السيّد الشهيد الصدر من لفظ «الإخباريّة القديمة»، هو إبعادها عن الحركة الإخباريّة الحديثة التي برزت في أواخر القرن الحادي عشر الهجريّ، الموافق للقرن السابع عشر ميلاديّ برئاسة الميرزا محمّد الاستربادي، المتوفّى عام ١٠٣٣هـ، فيقول: إنّ البحث الفقهيّ حين يقتصر على أصول المسائل المعطاة بصورة مباشرة في النصوص ويتقيّد بصيغتها المأثورة يكون بحثاً منكمشاً لا مجال للإبداع فيه، والعمق الواسع النطاق، وإنّ التطوّر العلميّ الذي يجب أن يمارسه الفقيه في التفريغ والتفصيل والمقارنة بين الأحكام وتطبيق القواعد العامّة،

(١) الصدر: المعالم الجديدة للأصول ص ٨١.

(٢) الحكيم: الشيخ الطوسيّ ص ٣١٧.

وتتبّع أحكام مختلف الحوادث والفروض على ضوء المعطيات المباشرة للنصوص[١].

وإنّ من الثابت أنّ الفكر الأصوليّ عند الإماميّة قد ارتكز على أسس أربعة وهي:

١ـ الكتاب

٢ـ السُّنّة

٣ـ العقل

٤ـ الإجماع

وإنّ الفقيه الإماميّ يستنبط الأحكام الشرعيّة من خلال هذه الأسس الأربعة، ويقول السيّد الصدر: «إنّ بروز علم الأصول جاء نتيجة ابتعاد عمليّة الاستنباط عن عصر التشريع، وانفصالها عن ظروف النصوص الشرعيّة وملابساتها، لأنّ الفاصل الزمنيّ عن ذلك الظرف هو الذي يخلق الثغرات والفجوات في عمليّة الاستنباط، وهذه الثغرات هي التي توجد الحكمة الملحّة إلى علم الأصول، والقواعد الأصوليّة»[٢]. وحدَّد السيّد الصدر عصور علم الأصول عند الإماميّة بثلاثة عصور، تطوّر خلالها علم الأصول وصولاً إلى عصر القِمّة وهي:

(١) الصدر: المعالم الجديدة للأصول ص٥٩ـ٦٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٢.

١ـ العصر التمهيديّ

٢ـ عصر العلم

٣ـ عصر الكمال العلميّ

ويُعدّ العصر التمهيديّ لعلم الأصول، البذرة الأولى الأساسيّة التي أوجدها الفقيهان: الحسن بن عليّ بن أبي عقيل، ومحمّد بن أحمد بن الجنيد، وذلك في أوائل القرن الرابع الهجريّ، واستمرّ العصر التمهيديّ إلى عصر الشيخ أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسيّ (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ)، وهو الذي نقل علم الأصول إلى مرحلة جديدة، وقد فصّلنا هذا الموضوع في رسالتنا الجامعيّة (الشيخ الطوسيّ)، إذ يقف القارئ من خلالها على تكوّر العلوم عند الإماميّة، وبروز أعلام على الساحة العلميّة، وأنّ كتبهم التي وصلتنا تؤشّر على تطوّر علم الأصول، حتّى عصر العلاّمة الحلّي جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهّر، المتوفّى في العام ٧٢٦هـ، وفي مقدّمة هؤلاء الأعلام الشيخ أبو جعفر محمّد بن منصور بن أحمد بن إدريس العجليّ الحلّي، المتوفّى في العام ٥٩٨هـ، وأبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن الهذلي، المعروف بالمحقق الحلّي، المتوفّى عام ٦٧٦هـ، وأصبح العلاّمة الحلّي شيخ الإماميّة الأكبر في عصره، وقد نقل علم الأصول إلى مرحلة متقدّمة،

حتّى أواخر القرن الثاني عشر الهجريّ، إلى ما بعد عصر الكمال العلميّ، وقد تربّع الشيخ الوحيد محمّد باقر بن محمّد أكمل المعروف بالوحيد البهبهاني، المتوفّى عام ١٢٠٦هـ، على قمّة علم الأصول عند الإماميّة، وأصبح مجدِّده في هذه الحقبة الزمنيّة، وإنّ القارئ الفاحص لكتاب الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر «المعالم الجديدة للأصول»، يجد عصور التطوّر العلميّ لعلم الأصول عند الإماميّة، فعند حديثه عن الشيخ المفيد أبي عبدالله محمّد بن محمّد النعمان العكبري، المتوفّى عام ٤١٣هـ، نجده محللاً لكتاب «التذكرة بأصول الفقه»، ونقده العلميّ لآراء ابن أبي عقيل العمانيّ، وابن الجنيد الإسكافيّ(١). وسار على منهجه تلميذه الشريف المرتضى أبو القاسم عليّ بن الحسين الموسويّ، المتوفّى عام ٤٣٦هـ، في كتابه «الذريعة»، وهو أوسع من كتاب أستاذه الشيخ المفيد «التذكرة» ويقول السيّد الشهيد الصدر: إنّ السيّد المرتضى أوصل علم الأصول إلى دور جديد من النضج الفكريّ، كما نقل الفقه إلى مستوى أرفع من التفريع والتوسّع(٢). وجاء الشيخ الطوسيّ، المتوفّى عام ٤٦٠هـ، الذي نهل من علم أستاذَيه «المفيد والمرتضى» علوماً متنوعةً، وأصبح

(١) الصدر: المعالم الجديدة للأصول ص ٥٥.
(٢) المصدر نفسه ص٥٦.

عصره بدايةً لكتابه في الموسوعات الفقهيّة، ويقول الشيخ محمّد أبو زهرة أنّه على رأس أعلام الفقه والأصول في عصره[١]. ويقول السيّد حسن الصدر، إنّ كتاب «العدّة في الأصول» للشيخ الطوسي لم يصنّف مثله، وهو في غاية البسط والتحقيق[٢]. وأشار السيّد الصدر إلى كتاب «العدّة في الأصول» بقوله: «إنّه يعبّر عن الجانب الأصوليّ من التطوّر»، بينما كان كتاب «المبسوط» في الفقه تعبيراً عن التطوّر العظيم في البحث الفقهي على صعيد التطبيق بالشكل الذي يوازي التطوّر الأصوليّ على صعيد النظريات[٣]. ولكن هذه النهضة الفكريّة في علم الأصول قد توقفت بعد وفاة الشيخ الطوسيّ عام ٤٦٠هـ، طيلة قرن كامل في المجالين الأصوليّ والفقهيّ[٤].

وأصبح في الساحة العلميّة الإماميّة فريقان متصارعان هما:

١ـ المقلِّدة

٢ـ المعارضة

وكان جماعة المقلّدة يذهبون إلى آراء الشيخ الطوسيّ

(١) محمّد أبو زهرة: الإمام الصادق ص ٢٨١.
(٢) حسن الصدر: الشيعة وفنون الإسلام ص ٥٧.
(٣) الصدر: المعالم الجديدة للأصول ص٥٦.
(٤) المصدر نفسه ص ٦٢.

أصول مسلّمة لا يمكن التأليف في قبالها، وأنّ إصدار الفتاوى مع وجودها تجاسراً على الشيخ الطوسيّ[1]. بينما يرى المعارضة أنّ هذه الآراء تؤدّي إلى إغلاق باب الاجتهاد عند الإماميّة، وقد وقف الإمام محمّد باقر الصدر بين الفريقين عند دراسته لكتاب «السرائر» نجد فيه ظاهرة الخروج على آراء الشيخ الطوسي، والأخذ بوجهات نظر تتعارض مع موقفه الأصوليّ والفقهيّ[2]. وقد أسهم الشيخ ابن إدريس الحلّي بإزالة الجمود الذي خيّم على الفكر الإماميّ بعد وفاة الشيخ الطوسيّ مدّة أكثر من قرن من الزمن.

(١) الأمين: أعيان الشيعة ٤٤/ ٣٦.

(٢) الصدر المعالم الجديدة للأصول ص٧٤.

الفصل الثالث

أصالة المعرفة التاريخيّة عند الشهيد السيّد الصدر

انتهج المؤرّخون والباحثون في حقل الدراسات التاريخيّة منهجين في الوصول إلى الحقيقة التاريخيّة المستنبطة من المصادر الأساسيّة من التاريخ والعلوم المجاورة كالأدب والفلسفة والجغرافيا والاقتصاد، فضلاً عن العلوم الدينيّة العقائديّة كالتفسير والحديث والفقه والأصول.

وكان المنهج التاريخيّ هو تقريب التاريخ إلى القصّة والرواية من دون الدخول في التحليل، أو إسقاط هذه الرواية لواقعيّتها العلميّة، ولكن هذا المنهج أخذ في التراجع بعد أن اقترب التاريخ من الفلسفة وأصبح علماً يحتوي الترجيح والاستنتاج، والوصول إلى النتائج بعد الوصول إلى مسببات الأحداث، وهذا المنهج التاريخي أخذ يحتلّ مساحة لدى المؤرّخين، ومساحة محدودة في المدرسة النّجفيّة، إذ انصبّت الدراسة فيها على الفقه والأصول، من

ثمّ على التفسير والحديث، وقد تربّع على دراسة التاريخ وفق المنهج العلميّ التحليليّ، علماء ومفكّرون يشار إليهم في المدرسة النّجفيّة، وهم الذين جمعوا بين الدراسة الدينيّة الحوزويّة وبين العلوم المساعدة ومنها علم التاريخ، وأبرزهم الأعلام:

١ ـ الشيخ محمّد رضا المظفّر

٢ ـ السيّد محمّد تقي الحكيم

٣ ـ الشيخ محمّد مهدي شمس الدين

٤ ـ الشيخ علي الكوراني

٥ ـ الشيخ عبد الهادي الفضلي

٦ ـ السيّد محمّد باقر الصدر

٧ ـ الشيخ عبد الحسين الأميني

٨ ـ السيّد محمّد حسين فضل الله

وكان السيّد الصدر قد سار في كتاباته وفق المنهج العلميّ التحليليّ للتاريخ، من دون الحديث في العلوم الأخرى التي نبغ فيها، وبخاصّة في مجالات الفلسفة والاقتصاد والفقه والأصول، وقد حاولنا الوقوف على آرائه التاريخيّة التي برز فيها من خلال فهمه الدقيق للنصوص التاريخيّة وفلسفته في استنباط النتائج للوصول إلى الحقيقة

التاريخيّة، وإنَّ القارئ المتفحّص، والناقد الموضوعيّ لكتب السيّد الشهيد الصدر في المجال المعرفيّ التاريخيّ يجده قد ارتكز على المنهج العلميّ، وفق أسس رصينة نابعة من معرفة تامّة بالتاريخ الإسلاميّ، ومراحله وعصوره، وما يتفرّع من التاريخ من أهداف سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة وفكريّة، واتصاله في بعض فصائله بالقصائد والفكر الإسلاميّ. وقد استطاع السيّد الصدر من خلالها تحويل التاريخ إلى علم يستند إلى التحليل والاستنتاج، وقد اعتمد منهجه العلميّ على ما يلي:

١ ـ الفرضيّة التاريخيّة

كان الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر يقدّم افتراضات معيّنة ومن ثمّ يتوصّل إلى النتائج التي تقود إلى الحقيقة التاريخيّة، ويُقدّم أحياناً تساؤلات، ومن ثمّ يقوم بالإجابة عنها كقوله: هل التشيّع ظاهرةٌ طارئة في المجتمع الإسلاميّ؟

فيجيب بقوله: «لا يجوز أن نُقرن ولادة الأطروحة الشيعيّة مع إطار الرسالة الإسلاميّة. وولادة كلمة شيعة أو التشيّع لمصطلح واسم خاص لفرقة محدودة من المسلمين، لأنّ ولادة الأسماء والمصطلحات شيء، ونشوء المحتوى أو الأطروحة شيء آخر»[1]، وقد حاول السيّد الصدر أيضاً

(١) الصدر: بحثٌ حول الولاية ص ١٠.

إيضاح الجذر التاريخيّ لعقيدة الشيعة بقوله: «نحن نستطيع أن نعتبر التشيّع نتيجة طبيعيّة للإسلام، وممثلاً لأطروحة كان المفروض للدعوة الإسلاميّة أن تتوصّل إليها حفاظاً على النحو السليم»، وكان السيّد الصدر يضع أسئلةً حول بعض المسائل العقائديّة، ثمّ يجيب عنها في محاولة لاستدراج القارئ إلى الحقيقة التاريخيّة على وفق إطاره الصحيح، وجذرها العميق، وذلك باستخدام لفظة «كيف»، وكانت بعض تعابير السيّد الصدر ذات مداليل سياسيّة، كقوله: «إنّ النبيّ ﷺ، كان يباشر قيادة دعوة انقلابيّة»، وأنّه عليه الصلاة والسلام، كان يمارس عمليّة تغيير شاملة للمجتمع[١]. وإنّ استخدام لفظة «القطاع المتستّر بالإسلام» كناية عن المنافقين، وأطلق على مسلمي يوم فتح مكّة عبارة تدلّ على عدم إيمانهم بالإسلام عقائديّاً بقوله: «إنّهم استسلموا للأمر الواقع لا انفتاحاً على الحقيقة»، وكان السيّد الصدر دقيقاً في تحليلاته لتاريخ السيرة النبويّة الشريفة، وقد توصّل إلى حقيقة الدّعوة الإسلاميّة وكيفيّة إيصالها إلى الجماهير بقوله: «أن يكون النبيّ ﷺ، وهو رائد الدعوة، أن يكون أكثر شعوراً بخطر السلبيّة، وأكبر إدراكاً، وأعمق فهماً لطبيعة الموقف، ومتطلّبات العمل التغييريّ»[٢].

---

(١) المصدر السابق ص ١١.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٧.

٢ ـ التحليل التاريخيّ

استَخدم السيّد الشهيد الصّدر عبارة: «ما أحصته كتب التاريخ»، عند إيراده النصوص التاريخيّة، وعند ذلك يبدأ في تحليلها ونقدها، فهو عند استعراضه لموضوع حصر تدوين الحديث النبويّ الشريف من السلطة الحاكمة، بعد وفاة النبيّ ﷺ، قال: «بقيت سُنّة الرسول الأعظم في ذمّة القدر يتحكّم فيها النسيان تارة، والتحريف أخرى، ومما يُؤيّد هذا الرأي هو اتساع عمليّة الوضع في الحديث الشريف ووقوع التحريف في الرواية بدءاً من يوم السقيفة، والعصور التاريخيّة التي أعقبته، وعند استعراض السيّد الصدر للشخصيّات الإسلاميّة في عصر الرسالة، كان يضع الرجال في مواقعهم الحقيقيّة من الأحداث، كما في حديثه عن أسامة بن زيد في حملته العسكريّة المقررة على بلاد الشام، وعدم تنفيذها في حياة النبيّ ﷺ، وتحدّث عن موضوع الكتف والدواة، وعلّل أسباب اختيار الإمام عليّ عليه السلام لإمامة الأمّة بعد وفاة الرسول الأكرم ﷺ، بقوله: «إنّ النبيّ أعدّ الإمام عليّ عليه السلام للمرجعيّة، وزعامة التجربة بعده، وأودعه سنّته كاملةً، وعلّمه ألف باب من العلم»[(١)].

وعند حديثه عن النصوص الإسرائيليّة التي تسرّبت لتراث الأمّة، ومقدار خطرها في التاريخ والحديث

(١) الصدر: بحث حول الولاية ص ١٨ـ١٩ـ٣٨.

الشريف، فإنّه كشف عن هذا الجانب الذي ما زلنا نجابهه بقوله: «وكلّنا نعرف أنّه شكّل بعد ذلك تيّاراً فكريّاً إسرائيليّاً تسرّب بصورة عفويّة، أو بسوء نيّة إلى كثير من مجالات التفكير»[١].

٣ ـ التفسير الدينيّ للتاريخ

أخذ السيّد الصدر بالتفسير الديني للتاريخ على وفق المنظور الشيعي القائم على النصّ والعصمة، فإنّه قد تحدّث عن القيادة الرساليّة، وترشيح الإمام عليّ عليه السلام، لخلافة المسلمين بعد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، على وفق مؤهلاته للمرجعيّة الفكريّة والسياسيّة بقوله: «إنّ هذه الشواهد، وشواهد أخرى كثيرة. تقدّم لنا صورة عن ذلك الإعداد الرساليّ الذي كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يمارسه في سبيل توعية الإمام على المستوى القياديّ للدعوة». وأشار إلى أنّ أهل البيت عليهم السلام، هم الامتداد الطبيعيّ للرسالة الإسلاميّة، بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان السيّد الصدر في أثناء استعراضه للأحداث بدءاً من يوم السقيفة، أصبح أهل البيت عليهم السلام، في محنة السلطة الحاكمة، حتّى تعرّض الأئمّة للتصفية الجسدية، وكان قد ناقش الأستاذ عبّاس محمود العقّاد في كتابه «فاطمة

(١) المصدر السابق ص ٤٣.

الزهراء والفاطميّون»، مناقشة المؤرّخ المتضلّع بأحداث التاريخ، والناقد لنصوصه، ووقف موقف الرافض لبعض آرائه، ويقول: «كانت فدك معنى رمزيّاً يرمز إلى المعنى العظيم، ولا يعني تلك الأرض الحجازيّة المسلوبة، وهذه الرمزيّة التي اكتسبتها فدك، هي التي ارتفعت بالمنازعة من مخاصمة عاديّة منكمشة في أفقها، محدودةٍ في دائرتها إلى ثورة واسعة النطاق رحيبة الأفق»، ولعلّ أروع تفسير لقضيّة فدك قد أشار إليه السيّد الصدر بقوله: «هي الثورة على أسس الحكم، والصَّرخة التي أرادت فاطمة أن تقتلع الحجر الأساسيّ الذي بنى عليه التاريخ بعد يوم السقيفة»، وقد أراد السيّد الصدر في معالجته الدقيقة لـ «فدك» وأحداث السقيفة، هو إبراز الاختيار الربانيّ للإمامة بعد انتهاء عصر النبوّة، ولكن السلطة السياسيّة الدنيويّة قد سارت على خطّ معاكس، فأقصت السلطة الشرعيّة التي تمثّلت بالإمام عليّ عليه السلام، بموجب مبدأ النصّ، ومن بعده الأئمّة عليهم السلام.

٤ ـ الحياد في دراسة التاريخ

برزت في نقاشات السيّد الصدر لأحداث التاريخ صفة الحياد والموضوعيّة، فهو عند حديثه عن فدك، واغتصاب السلطة الحاكمة لها، كان حياديّاً في استعراضه، فيقول: «لم يخلُ هذا التاريخ من اعتدال واستعانة في أحايين

مختلفة»[١]، وقد أوصى المؤرّخين بالنهج الحياديّ عند كتابة التاريخ بقوله: «فإذا كنت أن تكون حرّاً في تفكيرك، ومؤرّخاً لدنيا الناس لا روائيّاً يستوحي من دنيا ذهنه ما يكتب، فضع عواطفك جانباً أو إذا شئت فاملأ بها شعاب نفسك فهي ملكك لا ينازعك فيها أحد»[٢]. وإذا التزم المؤرّخ بهذه الوصايا، فإنّ التاريخ سيكتب بروح محايدة، بعيدة عن العواطف، والانحياز المذهبيّ، وعند ذلك يتمّ الوصول إلى الحقائق التاريخيّة، وعند حديث السيّد الصدر عن حملة أسامة، وأحداث يوم السقيفة، وجد ترابطاً بينهما، واتفاقاً بين رجال الحدثين، فيقول: «وقد يجعل هذا الالتفاف منهم جبهة معارضة لعليّ»[٣]، وعند حديثه عن خروج الصدّيقة فاطمة الزهراء عليها السلام، إلى المسجد النبويّ مع نسوة من أهل المدينة تحيط بها، فقد عدّ هذا الحدث «محاكمة علنيّة» في «وسط مضطرب»، ومن ثمّ أطلق لفظ «الحقّ المذبوح»[٤].

وكانت التعابير الرائعة تكشف استلهاماً كاملاً لفصول الأحداث بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقد عدّ السيّد الصدر ثورة الزهراء عليها السلام، (الثورة البكر)، التي كادت أن تلتهم

(١) الصدر: فدك في التاريخ ص ١٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٢١.
(٣) المصدر نفسه ص٤٥.
(٤) المصدر نفسه ص ١٢ـ١٣.

الخلافة، لولا أن عاكسها شذوذ الظرف وتناثرت أمامها العقبات[١].

ويمكننا القول، إنّ كتاب «فدك في التاريخ»، قد مزج فيه السيّد الصدر بين التاريخ والعلوم المساعدة أو المجاورة، وحاول استخراج التاريخ من دائرة الأدب إلى التفسير الفلسفيّ، وبذلك كان يتلمّس البعد التاريخيّ حتى في دراساته الاقتصاديّة، الفلسفيّة، الفقهيّة والأصوليّة، وأنّ في كتابه «المعالم الجديدة للأصول» شواهد تاريخيّة كثيرة، ونقداً لبعض الآراء حتّى الفقهيّة، كما في محاورة الشيخ المفيد للفقيهين: الحسن بن عليّ بن أبي عقيل، ومحمّد بن أحمد بن الجنيد[٢]. وعند حديثه عن كتاب «المبسوط» للشيخ الطوسي، فإنّه عدّه من المراحل الأولى من تكوّن الفكر الفقهي عند الإماميّة، وأنّه محاولة ناجحة في مقاييس التطوّر العلميّ لنقل البحث الفقهيّ من نطاقه الضيّق المحدود في أصول المسائل الفقهيّة إلى نطاق واسع يمارس الفقيه في التفريع والتفصيل والمقارنة بين الأحكام، وتطبيق القواعد العامّة، ويتتبع أحكام مختلف الحوادث والفروض في ضوء المعطيات المباشرة للنصوص[٣].

---

(١) المصدر السابق ص ٧.
(٢) الصدر: المعالم الجديدة للأصول ص٥٥.
(٣) المصدر نفسه.

وإنّ المتتبع لمراحل التطوّر التاريخيّ لعلميّ الفقه والأصول عند الإماميّة يجدها بارزة في كتاب «المعالم الجديدة للأصول» وقد كتبها السيّد الصدر بأسلوب المؤرّخ المتخصص الواعي للتاريخ وفلسفته، وعند استعراضه لتاريخ الحوزة العلميّة في النجف الأشرف، في عهد الشيخ الطوسي، يقول: كانت فتيّة في أكبر الظنّ، وإنّ الشيخ الطوسيّ قد انفصل عن تلامذته، وحوزته العلميّة في مدينة بغداد[١].

و عَدّ السيّد الصدر مؤلّفات الشيخ الطوسيّ حدّاً فاصلاً بين عصرين من عصور العلم. بين العصر العلميّ التمهيديّ والعصر الكامل[٢]. وهذا مما أعطى لمدرسة النجف الأشرف في عهد الشيخ الطوسيّ الموقع المتقدّم في الفكر الإماميّ. وقد أشار السيّد الصدر إلى ريادة الشيخ الطوسيّ في علم الأصول بقوله: إنّ مساهماته في علم الأصول لم تكن مجرّد استمرار للخطّ، وإنّما كانت تُعبّر عن تطوّر جديد يُشكّلُ جزءاً من تطّور شامل في التفكير الفقهيّ والعلميّ كلّه أُتيح لهذا الفقيه أن يُحققه[٣]. وكان السيّد الصدر في دراساته لكتب الإماميّة، وكتب الشيخ الطوسيّ على وجه التحديد يقف على مراحل التطوّر التاريخيّ لها، حتّى أنّه

(١) المصدر السابق ص٦٣ـ٦٤.

(٢) المصدر نفسه ص٥٦.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٦.

عدّ كتاب «عدّة الأصول» مرحلة متقدّمة في علم الأصول عند الإماميّة، وأنّ الشيخ الطوسيّ قد سار فيه بخطّ موازٍ للتطوّر العظيم الذي أنجزه في تلك الفترة على الصعيد الفقهي. وهذه الموازنة التاريخيّة بين التطوّرين تعززه فكرة التفاعل بين الفكر الفقهيّ، والفكر الأصولي، أي بين بحوث النظريّة، وبحوث التطبيق الفقهيّ، والفكر الأصوليّ، فإنّ الفقيه الذي يشتغل في حدود التعبير عن مدلول النصّ، ومعطاه المباشر بعباراته نفسها أو بعبارة مرادفة، ويعيش قريباً من عصر صدوره عن المعصوم عليه السلام، لا يحسّ بحاجة شديدة إلى قواعد، ولكنّه حين يدخل في مرحلة التفريع على النصّ، ودرس التفصيلات وافتراض فروض جديدة لاستخراج حكمها بطريقة ما من النصّ، يجد نفسه بحاجة كبيرة ومتزايدة إلى العناصر والقواعد العامّة، وتفتح أمامه آفاق التفكير الأصوليّ الرحيبة، وقد ربط السيّد الصدر بين كتابيّ «العدّة والمبسوط» للشيخ الطوسيّ على أنّهما نقلة تاريخيّة في علمي الفقه والأصول، فيقول إنّ كتاب «العدّة» في الأصول جاء تعبيراً عن الجانب الأصوليّ في التطوّر، بينما كتاب «المبسوط» في الفقه تعبيراً عن التطوّر العظيم في البحث الفقهيّ على صعيد التطبيق بالشكل الذي يُوازي التطوّر الأصوليّ على صعيد النظريات[1].

(١) الصدر: المعالم الجديدة للأصول ص٥٦، ص٦١.

ولكنّ هذا التطوّر في علمي الفقه والأصول قد توقّف بعد وفاة الشيخ الطوسيّ عام ٤٦٠هـ، طوال قرن من الزمن، حتى بروز الشيخ ابن إدريس الحلّي، المتوفّى عام ٥٩٨هـ، وتأليفه كتاب «السرائر»، وفيه ظاهرة الخروج على آراء الشيخ الطوسيّ، والأخذ بوجهات نظر تتعارض مع موقفه الأصوليّ والفقهيّ، وقد وقف السيّد الشهيد على آراء الشيخ ابن إدريس الحلّي في كتاب السرائر، فوجدها إيذاناً ببلوغ الفكر العلميّ في مدرسة الشيخ الطوسيّ إلى مستوى التفاعل مع افكاره ونقدها وتمحيصها(١). وإنّنا لو أمعنا في آراء السيّد محمّد باقر الصدر، وعمقه التاريخيّ في تطوّر العلوم عند الإماميّة كالفقه والأصول، أو دراسته التاريخيّة الصرفة في معالجة الأحداث في عصورها المختلفة نجد فيها التحليل والتدقيق من جانب، والحياد والموضوعيّة من جانب آخر، وفي الحقيقة أنّ رؤية السيّد الصدر التاريخيّة لم نجدها إلاّ في القلائل من أعلام النجف الأشرف، لأنّهم قد تخصصوا لدراسة الفقه والأصول، وكان لابدّ من الفقيه والأصوليّ والكلاميّ والمفسّر والمحدث أن يتعمّق بدراسة التاريخ على وفق رؤية علميّة فلسفيّة، ولعلّ الفكر التاريخيّ وأصالته عند السيّد محمّد باقر الصدر، قد يكون حافزاً لطلبة الحوزة العلميّة لاستخلاص الجوانب الخاطئة

(١) المصدر السابق ص٧٢.

من تراثنا الإسلاميّ، والنصوص الضعيفة والموضوعة في الموروث المودع في المكتبات، لأنّنا نعيش الآن في عصر التحدّي العلميّ بعد إطباق العولمة على واقعنا، وأنّ الحوار الفكريّ أخذ موقعه في الفضائيّات والبحوث والدراسات، فلا بدّ من أن نتسلّح بالفكر الخلاّق، وهضم التاريخ وتحليل نصوصه والابتعاد عن النصوص الضعيفة والموضوعة ومناقشتها أو إسقاطها، وهذا ما أراده السيّد الشهيد في كتاباته التاريخيّة، ومن المحتمل أنّ المتصدّي لآرائه في التفسير والفقه والأصول قد يصل إلى أصالة وإبداع.

❊❊❊

الفصل الرابع

الفكر السياسيّ عند الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر

لقد كان العقد السابع من القرن العشرين محاطاً بالدكتاتوريّة السيّاسيّة، فقد هيمن على السلطة حزب البعث، وأصبح صدّام حسين رجل الدولة الأول، فأراد لجميع الشعب العراقيّ الانصياع له، دون الاعتبار للمرجعيّة الدينيّة، والقيادة العشائريّة، والاتجاهات السياسيّة، ورفع شعار «نفّذ ثمّ ناقش»، فانضمّ لصفوف الحزب الملايين، واتجه غيرهم نحو التوفيقيّة مع الدولة إذا لم يكن انتماءً للحزب، وكان السجن والإعدام والتغريب عن الوطن يلاحق الذين ابتعدوا عن الحزبيّة والتوفيقيّة، وأرادت السلطة الحاكمة من الشهيد الصدر أن يكون توفيقيّاً ـ على الأقلّ ـ ولكنّها يئست، وعند ذلك أقدمت على جريمتها البشعة بإعدامه، مع عدد كبير من الموالين له، وقد جنّ جنون السلطة هو تأييد الشهيد الصدر للثورة الإسلاميّة في إيران، وبياناته التي أصدرها في شهري رجب وشعبان من

عام ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. وقد تضمّن البيان الأول وقوفه الصارم مع أبناء الشعب العراقيّ، وقد جاء فيه: «إنّي أودّ أن أؤكّد لك يا شعب آبائي وأجدادي أنّي معك، وفي أعماقك، ولن أتخلّى عنك في محنتك، وسأبذل آخر قطرة من دمي في سبيل الله من أجلك»[١] .

وكان إصرار السيّد الشهيد الصدر أدّى إلى التفاف الجماهير حوله من جانب، وإلى قيام السلطة بإجراءات قمعيّة من جانب آخر، ويلتقي موقف السيّد الصدر هذا في بعض خصائصه الثوريّة مع المبادئ السامية التي حملها إمامنا الشهيد أبو الشهداء الحسين عليه السلام، يوم خاطب السلطة الأمويّة الجائرة، بقوله: «هيهات منّا الذلّة»، وقد التقت كلمات السيّد الصدر مع مبادئ الثورة الحسينيّة بقوله: «وأودُّ أن أؤكّد للمسلمين أنّ هذا الحكم الذي فُرض بقوّة الحديد والنار على الشعب العراقيّ، وحرمانه من أبسط حقوقه وحرّياته، و من ممارسة شعائره الدينيّة، لا يمكن أن يُعالج دائماً بالقوّة والقمع، وأنَّ القوّة ما كانت علاجاً حاسماً إلاّ الفراعنة الجبابرة»، وختم بيانه بالقول: «فأيّة فترة تنتظرون؟»[٢]، وكان قد أطلق لفظ «الحُكم المطلق» على السلطة التي تولّت الحكم بين ١٩٦٨ـ

(١) عليّ المؤمن: صدى التاريخ ص٢٢٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٨.

١٩٧٨م، وأراد في بادئ الأمر أن تستجيب السلطة لمطالبه وهي:

١ ـ إطلاق حرّية الشعائر الدينيّة.

٢ ـ إيقاف حملات الإكراه بالانضمام إلى صفوف حزب البعث.

٣ ـ الإفراج عن المعتقلين.

وقد توقّع السيّد الشهيد الصدر أنّ السلطة سوف لن تستجيب لمطالبه، وقد يلتحق بصفوف الشهداء، بقوله: «هذه الطلبات سوف تكلّفني غالياً، وقد تُكلّفني حياتي»[1]، وكُنّا نتوقّع هذه الاحتمالات بحكم المعاصرة لها زماناً ومكانا، وقد ابتلي بها الإمام السيّد محسن الحكيم، ولم تتورّع السلطة بإجراءاتها القاسية، ولم تراعِ مكانته الدينيّة والاجتماعيّة، حتّى بعد وفاته عام ١٩٧٠م، وعاصرنا حملات الإعدام في صفوف حزب الدعوة، والإجراءات الصارمة ضدّ أصحاب المواكب الحسينيّة، ولكنّ السيّد الصدر لم ترهبه هذه الإجراءات، وكان إيمانه القاطع ومسؤولياته الشرعيّة، يقفان أمام السلطة وإجراءاتها التعسّفيّة الظالمة، فيقول: « ولا يمكن أن تموت أمّة تعيش في أعماقها روح محمّد وعليّ، والصفوة من آل محمّد».

(١) المصدر السابق ص٣٢٩.

وطالب الشعب العراقيّ بالصمود، بقوله: «مهما كلّفه ذلك من ثمن» وعدم الاستسلام للسلطة، وكان البيان الثاني الذي أصدره السيّد بعد الاعتقالات العشوائيّة وتنفيذ الإعدام بالطليعة الأولى بالمجاهديّن فيقول: «الذين يبلغني أنّهم يستشهدون الواحد بعد الآخر تحت سياط التعذيب»، وقد أطلق لفظ «المحنة» على الشعب العراقيّ وعندها صمّم على الشهادة بقوله: «وأنا أُعلن لكم يا أبنائي بأنّي صمّمت على الشهادة، ولعلّ هذا آخر ما تسمعون منّي»، وقد استشهد بالحديث النبوّي الشريف: «**إنّها حسنةٌ لا تضرّ معها سيّئة، والشهيدُ بشهادتِه يَغسل كلّ ذنوبه مهما بلغت**»، ودعا الشعب العراقيّ في الداخل والخارج، القيام بواجبه الشرعيّ، وإن كانت الشهادة.

وكان البيان الثالث الذي أصدره الشهيد السيّد الصدر قد حمل لفظ «اللحظة العصيبة» فيقول: «المحنة هي محنة كلّ الشعب العراقيّ، فيجب أن يكون الموقف جهاديّاً، والردّ البطوليّ، والتلاحم النضاليّ هو واقع كلّ الشعب العراقيّ»، وأكّد على وحدة الشعب دون التفريق بين مذهب أو قوميّة، بقوله: «فأنا معك يا أخي وولدي السُّنيّ، بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعيّ، أنا معكم بقدر ما أنتما مع الإسلام، وبقدر ما تحملون هذا المشعل العظيم لإنقاذ العراق من

كابوس التسلّط والاضطهاد»[1]، وقدّم نماذج تاريخيّة لوحدة الأمّة الإسلاميّة، بقوله: «إنّ الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يوحوا إلى أبنائنا السُّنّة أنَّ المسألة مسألة شيعة وسُنّة، ليفصلوا السُّنّة عن معركتهم الحقيقيّة ضدّ العدّو المشترك».

وأكّد لجميع فصائل المجتمع العراقيّ، بأنّ «حُرمة الإسلام وحرمة عليّ وعمر معاً في كلّ يوم، وفي كلّ خطوة من خطواتهم الإجراميّة»، ووجّه نداءه إلى المنتمين إلى حزب البعث بقوله: «إنّ هؤلاء المتسلّطين قد امتهنوا حتّى كرامة حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ، حيث عملوا من أجل تحويله من حزب عقائديّ إلى عصابة تفرض الانضمام إليها، والانتساب إليها بالقوّة والإكراه»، وذهب إلى رأي رائع بقوله: «إنّهم أحسّوا بالخوف حتى من الحزب نفسه الذي يدّعون تمثيله، إنّهم أحسّوا بالخوف منه إذا بقي حزباً حقيقيّاً له قواعده التي تبينها، ولهذا أرادوا أن يدهموا قواعده بتحويله إلى تجمّع يقوم على أساس الإكراه والتعذيب ليفقد أيّ مضمون حقيقيّ له»، ووجَّه خطاباً إلى الشعب بأكمله يقول فيه: «إنّكم جميعكم هدفي في الحاضر والمستقبل، فلتتوحّد كلمتكم، ولتتلاحم صفوفكم تحت راية الإسلام، ومن أجل إنقاذ العراق من

(١) المؤمن: صدى التاريخ ص ٣٣٢.

كابوس هذه الفئة المتسلّطة، وبناء عراق حُرّ كريم، تحكمه عدالة الإسلام، وتسوده كرامة الإنسان»[١].

إنّ الموقف السياسيّ الذي آمن به السيّد الشهيد الصدر، قد التقى بالموقف السياسيّ الذي تبنّاه الإمام السيّد روح الله الموسويّ الخمينيّ، فقد تبنّاه السيّد الصدر، وقدّم نفسه للشهادة، وتبنّاه السيّد الخمينيّ وأسقط السُّلطة الحاكمة، وكلاهما من استفادا من حركة التاريخ وتفسيراته، وقد وعيا الأحداث التاريخيّة في العصور الغابرة، وعاصرا أحداثاً، وخاضا غمارها، وقد وضعا منهاجاً شاملاً لبناء الدولة، على أسس إسلاميّة، وهذا مما أغاظ جبابرة الحكم في إيران والعراق، وجُنّ جنونهم، فأقدمت السلطة الجائرة على إعدام السيّد محمّد باقر الصدر، وعددٍ كبيرٍ من رجال العلم والفكر، والاعتداء الآثم الجائر على الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران، حتّى انتقال الإمام السيّد الخمينيّ قدّس سرّه، إلى الرفيق الأعلى وهو يتجرّع سموم المأساة الدامية بين العراق وإيران، وكانت المدّة الواقعة بين ١٤٠٠ـ ١٤٠٩هـ / ١٩٨٠ـ ١٩٨٩م، خطيرة وعصيبة، كلّفت الأمّة الإسلاميّة قوافل الشهداء وإهدار الأموال، وتفتيت الوحدة.

تتلخّص الملامح الفكريّة والسياسيّة المشتركة بين

(١) المؤمن: صدى التاريخ ص ٣٣٣.

الإمام الخمينيّ والسيّد الصدر بما يلي:

١ـ الوعي التاريخيّ واستلهام أحداثه.

٢ـ الحفاظ على مدرسة النجف الأشرف وحوزتها.

٣ـ صدّام حسين ومحمّد رضا بهلوي، وجهان لعملة واحدة.

٤ـ دور الفقيه لقيادة الأمّة.

وكانت لأسرتا السيّد الصدر والإمام الخمينيّ، آثارٌ ثوريّةٌ، ومناهضة للاستعمار الأجنبيّ، والحاكم الظالم المستبدّ، فقد تصدّى السيّد مصطفى الخمينيّ (والد الإمام روح الله الخمينيّ)، لنظام الشاه رضا خان، وقدّم نفسه للشهادة من أجل وطنه وأمّته، وكان جدّه السيّد أحمد الهندي، قد أعلن غضبه على الإنكليز في ولاية كشمير، وقد استمدّ الإمام الخمينيّ قدس سره ثوريّته من أسرته المجاهدة، وقرر الإطاحة بنظام محمّد رضا شاه إيران، وتأسيس الجمهوريّة الإسلاميّة، وكانت مدينة النجف الأشرف قد احتضنت أسرة الإمام الخمينيّ، وأنّ والده قد تتلمذ على يد الإمام السيّد محمّد حسن الشيرازي، المتوفّى عام ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م، وعاصر ثورة التنباك على الشركات الاحتكاريّة البريطانيّة، وعند عودة السيّد مصطفى الخمينيّ إلى إيران، تصدّى له جلاوزة الشاه

وقتلوه عام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م، وقد عاصر السيّد أحمد الهندي حركة المشروطة والمستبدّة، في عهد محمّد علي شاه، فانضمّ إلى صفوف جماعة المشروطة، أصبحت داره مأوى لهم[١].

وورث الإمام الخمينيّ الثوريّة والوعي السياسيّ من أسرته وأعلام النّجف الأشرف، وعند تولّيه مسؤوليّة القيادة الإسلاميّة، انضمّ إليه الوطنيّون في إيران، وبخاصّة من أنصار الدكتور محمّد مصدق،[٢] وقد التقى المجاهد السيّد محمّد باقر الصدر بالثوريّة التي حملها الإمام الخمينيّ، فهو قد عاصر الأحداث، بل كان على وعي بأحداث العراق التي سبقت عصره، وبعد سقوط الحكم الملكيّ عام ١٩٥٨ م، تبنّى حركة «جماعة العلماء» في النجف الأشرف، وكان له دور التوجيه للحركة الإسلاميّة عن طريق مجلّة الأضواء، والإشراف على المراحل التأسيسيّة لحزب الدعوة، ووضْع المحتوى الفكريّ والتنظيميّ للحزب.[٣] وقد أقلق هذا التحرّك السياسيّ السلطة الحاكمة، ومؤسساتها الأمنيّة.

جمع السيّد محمّد باقر الصدر في ثقافته الجانب الفكريّ، والجانب السياسيّ، فهو تبنّى مشروع جمعيّة

(١) الحكيم: المفصّل في تاريخ النجف الاشرف ٨/ ١٤٠.
(٢) أدور سابلييه: إيران مستودع البارود ص ١٠٦.
(٣) العبّاسيّ: البعد الدوليّ لاغتيال الإمام باقر الصدر ص١٨.

منتدى النشر الإصلاحي، وسعى لإحيائه، وإن أخفق في حينه، فإنّه قد وقف على مواضع الضعف في الحوزة العلميّة، من خلال مناهجه الدراسيّة، وعلى أساليب خطباء المنبر الحسينيّ، فعمل على إعادة تنظيم الحوزة، فأدخل دراسات جديدة معاصرة، وجعل من كتابيه «اقتصادنا» و«فلسفتنا»، طريق عمل جديدة في الدراسة الحوزويّة، فإنّه قد ناقش النظريّة الماركسيّة، والنظريّة الرأسماليّة بمنهجيّة دقيقة، ويقول الدكتور علي سامي النشّار: «لقد تعوّدنا، إن خاض رجل دين في علوم حديثة، أن تكون بضاعته مزجاة، وأن يكون إمّا لنقد فكرٍ مستورد، أو للتوفيق بين العلم والدين، ولكنّك إزاء فكر السيّد الصدر، أمَامَ أكاديميّ من الطراز الأوّل، يستعرض موضوعه من وجهة النظر الحديثة تفصيلاً، حتّى إذا استوفاه عرض الموضوع من وجهة نظر الدين، عرض عالم متفتّح ليكشف للقارئ آخر الأمر، أَوْجُهَ الاتفاق والاختلاف، وإنّ الاتجاه بين علماء الدين فريد، وعلى أمثاله المعتمد في التجديد، لأنّ الجمع المتوازن الذي أخفق فيه الكثيرون بين الأصالة والمعاصرة، أو بين التقليد والتجديد»(١).

أراد السيّد الشهيد الصدر من طلاّبه، ورجال الحوزة العلميّة، الاندماج في المجتمع، وفتح أبوابهم للناس،

(١) النشار: المشكاة ص٣٩ـ٤٠.

واستقطاب الكسبة والعمّال، وكان يستهدف ارتباط الشرائح الاجتماعيّة بالحوزة العلميّة، وقياداتها الفكريّة، ويبدو أنّ السيّد أخذ في هذا الاتجاه منذ عام ١٩٧٠م، فبدأ بإصلاح الحوزة العلميّة. وتنظيم المدرسة النّجفيّة، ولمّا أرادت السلطة تحجيم دوره، وتضييق الخناق عليه، اقترح عليه تلامذته ومريدوه مغادرة العراق، ولكنّ الإمام السيّد الخمينيّ رفض هذه الفكرة[١].

فالإمام الخمينيّ عند وجوده في النجف الأشرف يُركّز على محورين في محاضراته وهما:

١ـ تشكيل الحكومة الإسلاميّة.

٢ـ تولية الفقهاء مسؤوليّة الأمّة.

وكان قد استسقى من حركة السيّد الكاشانيّ، وحركة فدائيي إسلام أهدافهما، كما استقى السيّد الصدر من حركة الشيخ محمّد رضا المظفّر، وجمعيّة منتدى النشر، الأهداف الإصلاحيّة.

وكان السيّدان (الخمينيّ والصدر)، حريصَين على قيادة النجف الأشرف لحوزات الإماميّة، وقد أشارت رسالة الإمام الخمينيّ للسيّد الصدر بأنّ مدينة النجف مركز العلوم الإسلاميّة.[٢]

---

(١) الأسدي: الشهيد الصدر ص ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه ص١٥٧.

وقد استجاب السيّد الصدر لهذا النداء انطلاقاً من رعايته الروحيّة والفكريّة للمدرسة النجفيّة، بقوله: «أشعر بعمق المسؤوليّة في الحفاظ على الكيان العلميّ للنجف الأشرف»، وكان عام ١٣٩٩هـ، قد أكثرت فيه الرسائل بين الإمام الخمينيّ والسيّد الصدر، فأحدثت إرباكاً لدى السلطة الحاكمة في العراق. فأقدمت على اعتقال السيّد الصدر، وإعدام قادة الفكر السياسيّ والحوزويّ. مما أسهم في إضعاف المدرسة النجفيّة، ولمّا سُئل الإمام السيّد أبو القاسم الموسويّ الخوئي عن مصير المرجعيّة بعد مغادرة الإمام الخمينيّ النجف الأشرف قال: «إنّ المرجعيّة باقية في النجف الأشرف، وستبقى دوماً فيها»[١].

ولم تستطع السلطة الحاكمة إسقاط المدرسة النجفيّة، رغم عنفوان اضطهادها، بل عملت على إضعافها، وبخاصّة بين ١٩٨٠ـ٢٠٠٣م، وبقيت المرجعيّة العليا فيها دون الانتقال إلى مدينة أخرى.

وأودّ الإشارة إلى مجريات الأحداث بعد عام ١٩٧٠م، إلى أنّ الحاكمين في العراق وإيران (صدّام حسين ومحمّد رضا الشاه)، هما من عملة واحدة، ووقف السيّدان الخمينيّ والصدر، في وجه الجبابرة والطغاة، وقد أفصح الإمام السيّد الخمينيّ في محاضراته إلى ذلك بالقول: إنّ

(١) الحكيم: المفصّل في تاريخ النجف الأشرف ٨/ ١٤٦.

الطغاة والمستضعفين والمستكبرين، لم يتمكّنوا من إخماد صوت الحقيقة، وقد شهدت مدرسة الفيضيّة في مدينة قمّ المقدّسة، نشاطاً سياسياً وفكريّاً، وقد خاطب الإمام السيّد الخمينيّ، شاه إيران بقوله: «لم أعدد قلبي لتقبّل إنذارك، وإنّما أعددته لتلقّي رماحك»[١].

وهذا القول يلتقي مع فتوى الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر بحرمة الانتماء لحزب البعث، وكان السيّد الخمينيّ قد أطلق عبارة «البائس العليل» على شاه إيران، وأصبحت هذه العبارة نقطة تحوّل في الوضع السياسيّ، وبمثل ما يشبه هذا التقريع للسلطة الإيرانيّة، كان الشهيد الصدر قد خاطب السلطة العراقيّة، ولكن الحاكم الجائر لا تهمّه مصالحه الشخصيّة، فقد سدَّد صدّام حسين صواريخه للعتبات المقدّسة في النَّجف الأشرف وكربلاء، وقتل الآلاف من الناس، والمقابر الجماعيّة شاهدة على المجازر الرهيبة، كما أنّ مدينة قم المقدّسة قد سدَّد لها الشاه ضربات عنيفة دون مراعاة لقدسيتها، فكتب الإمام السيّد الخمينّي له: «لن أتخلّى عن مسؤولياتي بعون الله، وإذا كان لنا أن نموت فسنكون من الشهداء، وإذا كُتبت لنا الحياة فسنكون من الظَّافرين»[٢].

(١) محمّد حسنين هيكل: مدافع آية الله ص ١١٨.
(٢) المصدر نفسه ص١٢٠.

ولم تُضعف جريمة اغتيال السلطة لولده السيّد مصطفى من عزيمته، وفي حفل تأبينه، قال: «لقد سكبنا ما فيه الكفاية من الدموع»[١]. وبقي يواصل نشاطه السياسيّ والفكريّ، وحقق هدفهما بتأسيس الجمهورية الإسلاميّة.

وكان النشاط العلميّ والفكريّ قد جمع بين الإمام السيّد روح الله الخمينيّ، والإمام السيّد محمّد باقر الصدر. فقد أحصينا للإمام الخمينيّ ٥٤ كتاباً ورسالة، وأحصينا للسيّد محمّد باقر الصدر ٣٥ كتاباً، ولم تشغلهما الأحداث السياسيّة عن مواصلة النشاط العلميّ والفكريّ، فقد كان الإمام السيّد الخمينيّ يحاضر في «ولاية الفقيه»، في النَّجف الأشرف، ويُرسل محاضراته إلى خارج العراق، والسيّد الصَّدر يكتب في الفقه والأصول والفلسفة والاقتصاد وعلوم القرآن والتاريخ، فجاءت كتاباتهما أصيلة مبدعة، وموضع اهتمام الباحثين، وإن كُتب بعضها في ظروف عصيبة، وفي وسط حراب السلطة وأجهزتها الأمنيّة، ومن المؤسف أن يخلد بعض رجال الحوزة العلميّة للراحة دون الدخول في معترك المصادر والمراجع، وإتعاب أنفسهم في الكتابة والتأليف، وفق الرؤية التي أرادها السيّدان الخمينيّ والصدر، فأصبحت الحاجة ملحة لتحقيق المخطوطات، ورد الشبهات، في الوقت الذي تعالت فيه صيحات السلفيّة

(١) المصدر السابق ص ١٨٦.

ضدّ الفكر الإماميّ المستمَد من آل البيت عليهم السلام.

وأرى من التقصير أن لا أُشير إلى المجاهدة الصابرة «بطلة النَّجف الأشرف» العلويّة الشهيدة آمنة الصدر، المعروفة ببنت الهدى، فإنّها وقفت بشجاعة وبطولة في أيّام المحنة التي تعرّض إليها السيّد محمّد باقر الصدر، فقد جمعت الشهيدة بنت الهدى بين السيف والقلم، وآلت على نفسها أن ترفع السيف بوجه الطغاة، ولولا حركتها الجهاديّة لقدّمت للفكر نتاجاً معرفيّاً جديداً، وقد احتلّت في الساحة العلميّة النسويّة موقعاً متقدّماً، وأشرفت على مدارس علميّة في النّجف الأشرف وغيرها من مدن العراق، وأرادت من «مدرسة الزهراء» الواقعة تحت إشرافها، رصانة علميّة تربويّة، وإعداد جيل متسّلح بالعقيدة الإسلاميّة، فتقول[1]:

يا رسولَ الله أبشرْ وانظرِ اليومَ إلينا

لترانا كيفَ قد أشرقَ نورُ الحقِّ فينا

يا رسولَ اللهِ إنّا فتياتٌ قد أبينا

أن نرى القرآنَ مهجوراً على الرفِّ سنينا

أي وربّي

دعوة الإسلامِ جاءتْ بمساواةِ البشرْ

(١) عبد الرضا فرهود: النجف الأشرف ص ٥٩، القسّام: شهيدة العقيدة والمبدأ ص٥٤.

ليس في الإسلام فَرْقٌ بين عُرْب وتَتَر
أَحْسَنُ الأمّةِ من بالخيرِ والتقوى اشتهرْ

ووقفنا على النتاج المعرفيّ للشهيدة بنت الهدى من كتب وبحوث هي:

١ـ امرأتان ورجل

٢ـ الباحثة عن الحقيقة

٣ـ بطولة المرأة المسلمة

٤ـ الخالة الضائعة

٥ـ ذكريات على تلال مكّة

٦ـ صراع مع واقع الحياة

٧ـ الفضيلة تنتصر

٨ـ كلمة ودعوة

٩ـ ليتني كنت أعلم

١٠ـ لقاء في المستشفى

١١ـ المرأة وحديث المفاهيم الإسلاميّة

ومن المحتمل أنّ للعلويّة الشهيدة بنت الهدى مؤلّفات أخرى مخطوطة، وهي بحاجة إلى تحقيقها، وإن سلمت من أيدي السلطة الظالمة بعد اعتقالها مع أخيها الشهيد

السيّد محمّد باقر الصدر.

لقد أرادت الشهيدة بنت الهدى أن تكون «بطلة النَّجف الأشرف»، لتأخذ دور الحوراء زينب عليها السلام في يوم الطفّ، باعتبارها بطلة كربلاء، وكنّا قد شاهدنا دار الشهيد السيّد الصدر مطوّقاً من قبل رجال الأمن، خوفاً من وصول الناس إليه، وبقيت «المحنة» بين ١٩٧٧ـ ١٩٨٠م، تدور حول الشهيد الصدر وبنت الهدى، فالبيت مطوّق، والشهيد الصدر يُؤخذ مقيّداً بالسلاسل، ويوضع تحت الإقامة الجبريّة في النَّجف الأشرف. ولمّا اقتيد إلى بغداد بتاريخ ١٣ـ ٦ـ ١٩٧٩، صرخت العلويّة الشهيدة بنت الهدى بوجه رجال الأمن، ممّا أدّى بخروج الجماهير غاضبةً مستنكرةً، وقد أطلقت السلطة نيرانها على المتظاهرين، وكانت ليلة السابع عشر من شهر رجب حاسمة في تاريخ النَّجف الأشرف، وفيها ألقي القبض على السيّد محمّد باقر الصدر، فوقفت العلويّة الشهيدة قائلةً «هذا طريق أجدادك الطاهرين»، وأخذت تخطب في الجماهير، مستنكرة هذا الإجرام الظالم، وخاطبت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، بقولها: «الظليمة الظليمة يا جدّاه يا أمير المؤمنين، لقد اعتقلوا ولدك الصدر»، وعندها هوجمت مدينة النجف الأشرف، وطافت المظاهرات في أرجائها، فأقدمت السلطة على اعتقال المئات من المتظاهرين، فاضطرّت

السلطة بعد ذلك إلى إطلاق سراح السيّد الصدر، وفرضت عليه الإقامة الجبريّة، ولكن في يوم ٥/ ٤/ ١٩٨٠م، اعتقل السيّد الصدر وشقيقته بنت الهدى، ونالا الشهادة مساء ٨/ ٤/ ١٩٨٠م، وقد رثى الشهيدين عدد من الشعراء، وخصّ السيّد جودت القزويني الشهيدة بقصيدة منها[١]:

أعذراءُ، يـا سُبحـاتِ الجـلالِ
تَـبْـقـيـن مـاثـلـةً فـي رؤانـا

مشيتِ إلـى الموت في عزمة
تقـرِّبُ مـن ناظريـكِ الجنانـا

أبنـت الهـدى يـا تحـدّي الزمـان
يـا ومضـةً سطعـتْ في سمانـا

تـأمـلّـتُ أيّـامَـكِ الـنـيّـراتِ
نهـايتُـهـا خَـلَـقَـتْ مُبتـدانـا

وعشتـك مـذبـوحـة في أكـفّ
مديّتهـا أغرزت فـي حشـانـا

سـلامٌ علـى تربـةٍ ضَمَّنَتْـكِ
يدُ اللـه قـد أودعتهـا الأمانـا

أطـلّـي علينا نجوماً عـذارى
فمـا زالَ قـولٌ يحاكـي المسـارا

(١) القسام: شهيدة العقيدة والمبدأ ص ١٠٩ـ١١٠.

أبنتَ الهدى يا لجرْمِ العراقِ
إذا عـَدّ أهـلـوه بين الأسـارى

لـك الـلـهُ مخضلةً بـالـدمـاءِ
يـد الـغـيـبِ قـد نثرتها نثارا

فيـا رايةَ المجْـدِ مـا غُيّبَـتْ
وهـل غيّبـوا بالعمـاءِ النهـارا

وفي بحثي «المرأة النجفيّة في الدرس الفقهي»، المنشور في مجلّة البصيرة النّجفيّة، إشارة إلى القصص التي كتبتها الشهيدة بنت الهدى، بأنّها قصصٌ هادفة في معانيها، عقائديّة في مضامينها، وهذا اللون من الأدب القصصيّ قد خصّت به الشهيدة بنت الهدى، وقد أعطت لفقه المرأة حشاشة فكرها الإسلاميّ الخلاّق.

***

الفصل الخامس

ماذا تعلّمت من الشهيد محمّد باقر الصدر

شدّتني إلى الشهيد السيّد باقر الصدر قضيّتان هما:

نتاجه الفكريّ، وبخاصّة كتابيه «اقتصادنا» و«فلسفتنا»، ولقاءاتي المتكرّرة معه عند إعداد رسالتي الجامعيّة «الشيخ أبو جعفر محمّد بن الحسن ٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ»، وقد نلت بها شهادة الماجيستير من جامعة بغداد عام ١٩٧٤م، وكنت خلال سنَتي ١٩٧٢ـ ١٩٧٤م، سبقت مناقشة الرسالة أجمع النصوص التاريخيّة والعلميّة، وقد جمعت مكتبة الحسينيّة الشوشتريّة في النجف الأشرف بيني وبين الشهيد السعيد السيّد باقر الصّدر، فكنت أغوص بين مخطوطات المكتبة منذ الصباح إلى حين وصول السيّد الصدر إلى الحسينيّة للصلاة بالناس جماعة، وبعد الانتهاء منها أتقدّم إليه، مستفسراً عن الإشكالات التي تعترضني في أثناء جمع النصوص، وما كنت في ذلك الوقت أقف على أرض صلبة في عِلمَي الحديث والرجال، فكان السيّد الصدر يفتح صدره برحابة، وينبسط لي بشكل ملفت للنظر،

حتّى أنّ بعض المقرّبين إليه، وأظنّ الشيخ محمّد رضا النعماني، والسيّد محمود الهاشمي يطالبوني بالتخفيف من الأسئلة، ولكن السيّد الصدر كان يمضي في حديثه، وكأنه يلقي محاضرة علميّة، وغالباً ما يسألني عن كلّية الآداب وأساتذتها، وكيفيّة الدراسات العليا فيها، وكيف تمّ قبول الشيخ الطوسيّ في رسالة جامعيّة، ولم أنسَ امتزاج إجاباته بالابتسامة الهادئة، وكأنّه على علم بطبيعة الوضع الدراسيّ بجامعة بغداد، وتغلغل النفس الطائفيّ عند بعض التدريسيّين، وكيف يُعالج موضوع الشيخ الطوسيّ في ظلِّ هذا الوسط الممتلئ بالنعرات المذهبيّة، وقد أضاف السيّد الشهيد الصّدر معلومات دقيقة، وتحليلات منهجيّة، وأصبح كتابه «المعالم الجديدة للأصول»، مصدراً أساسيّاً من مصادر رسالتي، وقد اقتبست من آراء السيّد الصدر ١٩ نصّاً[١].

وكان الفكر الفقهيّ والأصوليّ واضحاً في هذه النصوص، فضلاً عن البعد التاريخيّ. وكنت إذا استعصت عليّ مسألة، فإذا بي أقصد دار السيّد الصدر الواقعة في سوق العمارة، فيستقبلني بما عرف عنه من بشاشة وجه ورحابة صدر، وكان يخاطب الجالسين أنّ هذه الرسالة

---

(١) الحكيم: الشيخ الطوسي، ص ٢٣ ـ ٨١ ـ ٨٦ ـ ٨٧ ـ ١٠٤ ـ ٣١٧ ـ ٣١٨ ـ ٤٤٩ ـ ٤٦٠ ـ ٤٦١ ـ ٤٦٨ ـ ٤٦٩ ـ ٤٧٠ ـ ٤٧٢ ـ ٤٧٣.

تقدّم إلى جامعة بغداد، فلا بدّ من أن تكون بالمستوى المطلوب، وكانت آراء السيّد الشهيد الصدر، في عِلْمَي الحديث والرجال قد ساعدتني على إنجاز كتابي «مذاهب الإسلاميين في علوم الحديث» ولم أجد من لجنة المناقشة لرسالتي، والمؤلّفة من الأستاذ الدكتور ناجي معروف، والأستاذ عبد الله فيّاض، والأستاذ الدكتور محمّد الهاشمي، أيّة اعتراضات على النصوص المستمدّة من كتاب «المعالم الجديدة للأصول» للسيّد محمّد باقر الصدر، فإنّه قد تناول علم الأصول عند الإماميّة حتّى عصر الشيخ المفيد أبي عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري، المتوفّى عام ٤٣١هـ، وقد وجّه نقداً لجملة من آراء الشيخ محمّد بن أحمد بن الجنيد، والحسن بن عليّ بن أبي عقيل[١]. وعند حديثه عن كتاب «المبسوط» للشيخ الطوسيّ، تناول المراحل البدائيّة من تكوّن الفكر الفقهيّ التي مرّ بها علم الشريعة عند الاماميّة، وإنّما من خلالها[٢].

وأعطى السيّد الصدر كتاب المبسوط أهميّة كبيرة في الفكر الإماميّ، إذ يقول: جاء كتاب المبسوط محاولة ناجحة وعظيمة في مقاييس التطور العلميّ لنقل البحث الفقهيّ من نطاقه الضيّق المحدود في أصول المسائل، إلى

(١) الصدر: المعالم الجديدة للأصول ص٥٥.

(٢) الطوسيّ: المبسوط ص ٣٠.

نطاق أوسع يُمارس فيه الفقيه التفريع والتفصيل والمقارنة بين الأحكام، وتطبيق القواعد العامّة، ويتبّع أحكام مختلف الحوادث والفروض في ضوء المعطيات المباشرة للنصوص(١).

ويبدو أنّ آراء السيّد الصدر لم تُرضِ المسؤولين في وزارة الثقافة، إذ لم تأتِ وفق معاييرهم في السلامة الفكريّة، وبعد استشهاد السيّد الصدر وردني كتاب من وزارة الثقافة، يُطالبني فيه حذف «محمّد باقر الصدر» أينما ورد في الرسالة، وهذا مما أحرجني، في الوقت الذي كنت أستاذاً في كليّة الفقه، فعرضت الأمر على عميد الكليّة أنّ حذف اسم السيّد الصدر غير ممكن لتكراره وروده في كلّ فصول الرسالة، وإنّما الحلّ هو إنزال الرسالة من رفوف المكتبة ووضعها مع كثير من الكتب الممنوعة تنفيذاً لأوامر السلطة.

وقد حُجب كتابي «الشيخ الطوسي» عن طلاب الكليّة، ولم أهده إلاّ للأحبّة المخلصين، ومن المحتمل أنّ حديث السيّد الصّدر عن مدرسة النّجف الأشرف وحوزتها العلميّة قد أغاظت السلطة الحاكمة، ولمّا أجيزت الرسالة بتقدير جيّد جدّاً، قُدّمت لجامعة بغداد لطابعتها وفق قرارها، وهو طباعة الرسائل الحاصلة على تقدير جيّد جدّاً

(١) الصدر: المعالم الجديدة للأصول ص ٥٩ ـ ٦٠.

وامتياز، وقُدّمت فيما بعد إلى دائرة الرقابة في وزارة الثقافة والإعلام، فحُذفت منها نصوصٌ كثيرة، اعتبرت بعيدةً عن السلامة الفكريّة، ولمّا أكملت طباعتها قدّمت نسخة منها إلى الشهيد السيّد الصدر، فطار فرحاً وهمس بأذني، قائلاً: «من الغرابة أن تُمنح شهادة الماجيستير، وأشدّ غرابة أن تكون بتقدير جيّد جدّاً»، وإنّ كلمات السيّد الصدر بقيت عالقة في ذهني، وجهوده في تبسيط النصوص مازالت تساير مشاريعي العلميّة وبخاصّة دراساتي المخطط لها عن علماء الاماميّة كالشيخ الصدوق، الشيخ المفيد، والشيخ النجاشيّ وغيرهم، وبعد سقوط النظام الصدّاميّ في ٩/ ٤/ ٢٠٠٣، شاركتُ في عدّة مؤتمرات مخصصة للشهيد الصدر، وبالبحوث الآتية:

١ـ السيّد محمّد باقر الصدر عملاق في القِمّة.

٢ـ أصالة المعرفة التاريخيّة عند الشهيد محمّد باقر الصدر.

٣ـ السيّد محمّد باقر الصدر «ترجمة تفصيليّة» في الجزء الثامن من كتابي « المفصّل في تاريخ النجف الأشرف».

وهذا لا يعني أنّني قد استكملت الحديث عن الشهيد السيّد الصدر، لأنّ نتاجه العلميّ والفكريّ يجعلنا نغترف

منه أصول البحث العلميّ، والفكر المعرفيّ على وفق تخصصات الفقه والأصول والتفسير والحديث والتاريخ والفلسفة والاقتصاد والتربية، وغيرها، وسأبقى أقول: «ماذا تعلّمت من السيّد الشهيد الصدر، وسعة الفكر، وخفّة الروح»، وأصبح علم السيّد الصدر، وخُلُقه الرفيع نماذج لطالب العلم وتحمّله ونقله إلى الآخرين.

❊❊❊

الخاتمة

جاءت دراستي للإمام المجاهد السيّد محمّد باقر الصدر، وفق قراءتي لمؤلّفاته ومنهجه البحثيّ العلميّ، ومعاصرتي للأحداث التي خاض ثمارها، وأدّت إلى استشهاده، وقد تمحورت الدراسة على فكره العقائديّ والسياسيّ، وعلى أصالة المعرفة التاريخيّة التي انفرد بها في المدرسة النجفيّة.

وبعد وقوفي على تراثه المعرفيّ الذي واكبني منذ إعداد رسالتي للماجيستير بين ١٩٧٢ـ ١٩٧٤م، تلمّست أنّ السيّد الصدر، أجدر من غيره على استيعاب فكر الشيخ الطوسي، وذلك من خلال أسئلتي في مواضيع عِلْمَي الحديث والرجال، فإنّه كان واسع الصدر لم تستوقفه مشاغله ومسؤولياته عن الإجابة وإن طال وقتها، ولم أجده معتذراً في يوم من الأيام، وكان يُحاورني عن جامعة بغداد، وعمادة كليّة الآداب، وكيفيّة السماح بدراسة عَلَم كبير من أعلام الفكر الإماميّ، ووفاءً لخدمات السيّد

الصدر لي، أحببت دراسته وفق المنظور التاريخيّ، معتمداً على الكتب المكتوبة، والمشاهدات العينيّة المعاصرة للأحداث التي عصفت في مدينة النَّجف الأشرف بين ١٩٧٠ـ ١٩٨٠م، وقد انصبّت دراستي على فلسفة السيّد الصدر للفكر الإماميّ العقائديّ، والفكر السياسيّ، وعلى أصالة المعرفة التاريخيّة التي رافقت اجتهاداته في الفقه والأصول والعقائد، ومن خلال إنجازاته المعرفيّة، وقفت على منهجيّته في الكتابة، وانفراديّته في استخلاص الحقائق وقلّما نجد هذه المنهجيّة عند فقيه أو أصوليّ أو محدث، وهذ مما جعلنا نقول إنّه مزج بين العلوم الدينيّة والحوزويّة وبين علم التاريخ وفلسفته.

غلب التحليل والاستنتاج على فكر السيّد الصدر، وتعريض النصوص للنقد والاستقصاء، وقد حذا جماعةٌ من طلاّبه حَذْوَه، بعد أن ساروا على خطاه في مسيرته العلميّة، وخطواته السياسيّة، يوم كانت «جماعة العلماء» و«حزب الدعوة» و «مجلّة الأضواء»، قد احتلّت جانباً من فكره الخلاّق، ولم يأبه لمضايقات السلطة، وتكرار اعتقاله، إلى حين استشهاده، إلاّ أن يؤدّي رسالته العلميّة، ورسالته السياسيّة، وهو بذلك قد سار على منهاج أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وهو عارفٌ بمصيره المحتوم، وضراوة السلطة الحاكمة، كما أنّ شقيقته الشهيدة بنت الهدى، أو

بطلة النّجف الأشرف، قد هضمت رسالة الحوراء زينب عليها السلام، يوم وقفت يوم الطفّ بإيمانها الراسخ، وعقيدتها الثابتة، في الوقت الذي شهد فيه العراق حرباً ضروساً مع الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران، تحمّل الشهيد الصدر آلامها الممضة، فنهض مجاهداً صابراً محتسباً، حتّى تجلبب بجلباب الشهادة.

وقد أعطى استشهاده فرصةً للباحثين بدراسة آرائه وفكره وجهاده، وتصدّى طلبة الدراسات العليا لسيرة الشهيد الصدر، في رسائل الماجيستير والدكتوراه.

وما هذه الدراسة التي أقدّمُها أمام القارئ الكريم، إلاّ لمحات من السيرة الصدريّة الشريفة، وأملنا أن تبرز مؤلّفاته المخطوطة إلى عالم النور إن لم تصل إلى أيادي السلطة أيّام المحنة.

وهذا جزء من الوفاء للسيّد الشهيد، ونسأل الله العليّ القدير أن يحفظ العاملين، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

***

المصادر والمراجع

١ـ أدور سابلييه، إيران مستودع البارود، ترجمة عز الدين محمود السراج ١٩٨٠م.

٢ـ أبو زهرة، محمّد، الإمام الصادق حياته وعصره، آراؤه وفقهه، مطبعة أحمد علي مخيمر/ القاهرة.

٣ـ الأسديّ، مختار، الشهيد الصدر بين أزمة التاريخ وذمّة المؤرّخين، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٤ـ الأمين، محسن الحسيني العامليّ (ت ١٣٧١هـ)، أعيان الشيعة، مطابع الإتقان والإنصاف، بيروت، ومطابع ابن زيدون والشرقيّ، دمشق.

٥ـ الأميني، محمّد هادي، معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام، مطبعة الآداب/ النجف الأشرف، الطبعة الاولى ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٦ـ د. الجزائري، محمّد جواد، رحلة الصبر في إظهار مثوى السيّد الصدر، مطبعة الأدباء/ النجف الأشرف ٢٠٠٦م.

٧ـ الحائري، السيّد كاظم، السيّد الصدر وسموّ الموقف،

دار البشير، القاهرة.
٨ـ حرز الدين، محمّد، معارف الرجال في تراجم العلماء والأدباء، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.
٩ـ الحسيني، محمّد، محمّد باقر الصدر حياة حافلة، فكر خلاّق، دار المحجّة البيضاء، بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
١٠ـ الحكيم، حسن عيسى، الشيخ الطوسيّ أبو جعفر بن محمّد الحسن (ت ٤٦٠هـ)، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.
١١ـ المفصّل في تاريخ النجف الأشرف، مطبعة الشريعة/ قم.
١٢ـ ملامح النبوغ الفكريّ عند الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر، بحث في مجلّة الأصالة، العدد الثاني.
١٣ ـ الخطيب، علاء، الفكر الاقتصاديّ عند الإمامين النورسي والصدر، جامعة روسترام، ٢٠٠٦م.
١٤ـ السراج، عدنان، الإمام الحكيم، دار الزهراء، بيروت، ١٩٩٣م.
١٥ـ ابن شهرآشوب، رشيد الدين أبو جعفر محمّد بن عليّ السرورىّ (ت ٥٨٨هـ)، معالم العلماء، مطبعة فردين، طهران، ١٣٥٣هـ.

١٦ـ الصدر، حسن السيّد هادي (ت ١٣٥٤هـ)، الشيعة وفنون الإسلام، مطبعة العرفان، صيدا ١٣٣١هـ.
١٧ـ الصدر، محمّد باقر، أئمّة أهل البيت تنوّع أهداف ووحدة هدف، دار التعارف للمطبوعات.
١٨ـ بحث حول المهديّ، تحقيق الدكتور عبد الجبّار شرارة، الطبعة الأولى م ١٩٩٦، قمّ.
١٩ـ بحثٌ حول الولاية، دار التعارف، بيروت، ١٩٨١م.
٢٠ـ فدك في التاريخ، دار التعارف، بيروت ١٩٨٢م.
٢١ـ المعالم الجديدة للأصول، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ.
٢٢ـ نشأة التشيّع والشيعة، تحقيق عبد الجبّار شرارة، مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة ١٩٩٧م.
٢٣ـ الطوسيّ، أبو جعفر محمّد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، الفهرست، المطبعة الحيدريّة، النجف الأشرف، الطبعة الثانية، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.
٢٤ـ المبسوط، طبع حجر.
٢٥ـ عادل رؤوف، محمّد باقر الصدر بين دكتاتوريّتين، المركز العراقيّ للإعلام والدراسات، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٢٦ـ العبّاسي، محمّد، البعد الدوليّ لاغتيال السيّد محمّد باقر الصدر، قصّة الصراع بين الإسلام والاستكبار،

مطبعة البداية للنشر والإعلام والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
٢٧ـ عبد الرضا فرهود، النجف الأشرف، أدباؤها، كتّابها، مؤرّخوها، (١٩٥٠ ـ ٢٠٠٠م)، مؤسسة النبراس، النجف الأشرف ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
٢٨ـ العلاّمة الحلّي، جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهّر (ت ٧٢٦هـ)، الرجال، خلاصة الأقوال في معرفة الرجال، المطبعة الحيدريّة، النجف الأشرف، الطبعة الثانية ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.
٢٩ـ غيبيّ، محمّد حسين علاوي، خُذيني كما شئت، دار الضياء للطباعة والتصميم، النجف الأشرف، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
٣٠ـ القسّام، رشيد، شهيدة العقيدة والمبدأ بنت الهدى بطلة العصر، مؤسسة النبراس، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
٣١ـ كوركيس عوّاد، مُعجم المؤلّفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين، ١٨٠٠/ ١٩٦٩م، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٩م.
٣٢ـ المؤمن، عليّ، صدى التاريخ، العراق من حكم السلطة إلى حكم المعارضة، مركز دراسات المشرق العربيّ، بيروت، الطبعة الاولى ٢٠١٠م.

٣٣ـ النجاشيّ، أبو العبّاس أحمد بن عليّ (ت ٤٥٠هـ)، الرجال، مطبعة مصطفويّ.
٣٤ـ نجف، محمّد أمين، علماء في رضوان الله، مطبعة الفرقان، النجف الأشرف.
٣٥ـ النشّار، عليّ سامي، المشكاة، دار المعرفة الجامعيّة الجامعيّة، الإسكندريّة، ١٩٨٥م.
٣٦ـ النعماني، محمّد رضا، الشهيد الصدر، سنوات المحنة وأيّام الحصار، طبع في قمّ، ١٩٩٦م، ومطبعة إسماعيليّان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
٣٧ـ هيكل، محمّد حسنين، مدافع آية الله قصّة إيران والثورة، دار الشروق، القاهرة.

❊❊❊

الفهرس

الفصل الخامس



المركز الإسلامي الثقافي

مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام